وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٧»

ابن طفيل الأندلسي



د. محمد رضوان الداية



ابن طفيل الأندلسي

وقصّة: حَيّ بن يَقظان



ابـن طفيل الأندلسي

وقصّة: حَيّ بن يَقظان

تأليف: أ. د. محمد رضوان الداية

رسوم: أحمـد حـاج أحمـد

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

ابن طفيل الأندلسي وقصة حي بن يقظان / تأليف محمد رضوان الداية؛ رسوم أحمد حاج أحمد .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م .- ١١٢ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٧)

١- ١٨٩,١٧١ د ا ي إ ٢- العنوان
٣- الداية ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١٧»

«هذه القصّة: تُعتبرُ ولا شكّ في مقدّمةِ الآثار العربية التي تستحق الخُلود في تاريخ الفكر البشري»

(من مقدمة د. جميل صليبا و د. كامل عياد على قصة حي بن يقظان).


الهيئة العامة
السورية للكتاب

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ الكريم هو دراسة موجزة ومكثفة عن أحد رجال الفكر والعلم والأدب في تاريخ التراث العربي: يلقي الضوء على بيئته وأبرز معالم حياته، ويعرض لأهم وجوه إبداعاته ومنجزاته، وهو أبو بكر بن طفيل الأندلسي الذي اقترن اسمه في الأندلس والمغرب العربي وفي بلاد المشرق العربي والإسلامي باسم روايةٍ فلسفيةٍ بديعةٍ عنوانها: (حي بن يقظان) وهذه الشّهرة الواسعة لابن طفيل لم تقتصر على البلاد العربية والإسْلاميّة بل تجاوزتها إلى بلاد غربيّة كثيرة ترجمت هذه الرّواية، ونقلت من أخباره وأعــماله. ولم يتوقّف تقدير هذا المبدع الأندلسي على الزمان الذي عاش فيه (القرن السّادس الهجري – الثاني عشر الميلادي) بل تجاوزه وصولاً إلى العصرْ الحَديث.

- وهذه الدراسة تكتسب أهمّيتها من عدد من العناصر :

١) فهي تُعرّف بهذا العالم المفكّر الأديب الذي برز في عصره - على الرّغم من تعدد مواهبه - بأمرين مهمين: صنعة الطب وإتقان الفلسفة.

٢) تعرض لجوانب من أخباره وأشعاره وممارساته المهنية.

٣) تعرض للقارئ قصّته الشهيرة (حي بن يقظان)، وتتابع الأصداء التي تركتها في مؤلّفين أندلسيين ومشارقة، إضافة إلى أصداءٍ واسعة جاءت من اهتمام الغربيين بالقصّة ومن تقليد هذه القصة أو الانتفاع بها على درجاتٍ من الأخذ، والانتفاع والمحاكاة .

- ووضعت في خُطَّتي أنْ يتحلّى الكتاب بعددٍ من المزايا:

١) أن يكون أسلوب المعالجة ميسوراً بسيطاً ليصل إلى القارئ في مستوياته اللّغوية المختلفة، ومعلوم أن التأليف في موضوع يتصل بالفلسفة هو أمرٌ دقيق؛ فلا بدّ من إيصال الفكرة من جهةٍ، وأن تكون بلغة سلسة غير معقّدة من جهة أخرى .

٢) وأن يعتمد أساساً على المصادر الأصلية التراثية: نص القصة من جهة، والكتب التراثية (القديمة) التي تحدثت عن ابن

طفيل وعن قصّته، وسائر ما يتعلق به، مع عدم ترك المراجع الحديثة، في اختيار دقيق وموضوعي.

٣) وأن يبسّط بعض الجوانب المُغرقة في التّخصص، ويوضّح المصطلحات أو يقدم العبارات البديلة الدالة على المقصود، حتى تصل الفكرة إلى القارئ دون تعقيد، ولتكونَ في درجةٍ عاليةٍ من الفهم والاستيعاب، دون أن يكونَ في ذلكَ أيّ جورٍ على جوهر الفكرة أو خروجٍ عن حقيقة المضمون .

• وقد أقللتُ من الإشارة إلى اختلاف آراء دارسي قصة حي ابن يقظان من العرب والغَربيين اكتفاءً بما يوضح معالم القصّة ويقدم للقارئ الخلاصة والآراء التي تقاربت أقوالُ الباحثين فيها أو تطابقت؛ لأن عالماً أو فيلسوفاً مثل ابن طفيل يثير - بلا شك - آراءً كثيرةً، يبدو فيها أثرُ اختلاف الّثّقافات والمواقف والرُّؤى ... والكتاب **الذي نقدمه** لا يحتمل الإطالة ولا الاستغراق في الجُزئيّات: مما يطلبه المتخصّصون ومحبو الإطالة .

• وعلى الرغم من تعاطُفنا مع عُلمائنا وأُدبائنا ومُبدعينا، فإن منهجنا هو: الدّقةُ، والموضوعيّةُ، وهما عنصران لا يتعارضان مع الإشادة بابن طُفَيل، وآرائه حين يكون ذلك في مكانه

المناسب، وبالقدر الملائم. فنحن أمام شخصيةٍ تجاوزت الإقليم أو البلد الذي ينتمي إليه (الأندلس) وتجاوزت الزّمان الذي كان فيه (القرن السادس الهجري). واسمُ ابن طفيل ما يزالُ متداولاً في تاريخ الطبّ، وفي الفلسفة، وفي القصّة الفلسفيّة التي كان هو أوّلَ مبدعٍ حقيقيٍ لها في تراث الإنسانية على نحوٍ متكامل.

ابـن طُفيــل

شخصيّته وأخباره

و: المكان والزمان

ابن طفيل في إطار الزمان والمكان:

١) ابن طفيل والمكان

في نسبة ابن طفيل: **الوادي آشي**[(١)]، الغَرْناطي الأندلسي. وبلدته التي هي أصْله بلدة: وادي آش، وتُلفظ أيضاً: وادي ياش (ويقال في اسمها وادي الأَشات) وهي جميعاً علمٌ على بلدةٍ تقع على نهر "فَرْدس" على نحو ٥٣ كيلو متراً شمال شرقي مدينة

---

(١) وقد نسبه ابن الأبار في كتابه (المقتضب من تحفة القادم) ص: ٧٢ إلى بلدة برشانة (يقال لها أيضا: مرشانه) MARCHANA من عمل المَرِيّة (تابعة للمرية) وأدرجه ابن سعيد في (المغرب في حلى المغرب ٢:٨٥) في علماء حصن (تاجله) من أعمال (بسطة) التابعة لـ(جيّان).

منسّق:مكثف بمقدار ٠,١ نقطة

غَرْناطة، وهي مدينة وادي آش ومُتَنَزّهاتها تقول الشاعرة الأندلسيّة حَمْدة بنت زياد الوادي آشية:

[من بحر الوافر]

أبَاح الشوقُ أسـراري بِـوادٍ	**لهُ في الحُـسْن آثـارٌ بَـوادِ**
فمن وادٍ يطـوفُ بكـلّ أرض	**ومن رَوضٍ يطوفُ بكـل وادِ**

وهذا الشعر صدىً لحقيقة جمال طبيعة المدينة وواديها، وقد وصفها أحد الجغرافيين بقوله: (وهو الحميري في كتابه الرّوض المعطار: ص ٦٠٤) إنها مدينة كبيرة خطيرة تكثر حولها المياه والأنهار... وهي كثيرة التُّوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير...

وقد أطلق العرب على هذه المدينة اسم: وادي العَيْش لمعنى: وادي الحَياة، وذلك بسب سهلها الخصب الواسع الجميل. وهي تشغل وادٍ ممتعٍ مُمرِعٍ واقعٍ في السّفح الجنوبي لجبال: (سييرّا نيفادا).

وكانت "مملكة" غَرْناطة تتألف من ثلاث كُوَر رئيسية كالمحافظات: إلبيرة (ومركزها غرناطة) – وكورة بشانة (ومركزها مدينة المِريّة) - وكورة ريّة (ومركزها مدينة مالقة).

وقد نبغ من مدينة وادي آش عددٌ من العلماء والأدباء والشعراء من آخرهـم: أبو جعفر أحمـد بن علي البلويّ الوادي



آشي. وقد وُلِد هذا العالم في أواخر عصر الإسلام في الأندلس وعَمّر طويلاً حتى توفي سنة ٩٣٨ هجرية بعد سقوط غرناطة بأربعين سنة.

والغَرْناطي: نسبة إلى مدينة غَرْناطة. وكانت قديماً إلى نهاية العصر الأموي قرية صغيرة إلى جانب مدينة البيرة. ثم عمرت غرناطة وكبرت باضمحلال البيرة التي انتقل منها أهلها أيام الاضطرابات أوائل القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي - ثم صارت عاصمةً لدويلة من الدويلات التي جاءت بعد الأُمويين. وبعد توحيد الأندلس والمغرب أيّام المرابطين والموحدين صارت مركزاً يُديره والٍ يُعيّنه الأمير أو الخليفة فلما انهار عصر الدّولة الموحّدة، وضاعت أجزاءٌ كبيرةٌ من الأندلس في القرن السّابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) صار محمد بن محمد بن الأحمر أميراً على الباقي من دولة الأندلس، ما عُرِف باسم دولة بني الأحمر أو مملكة غرناطة واتخذ (غرناطة) عاصمةً.

وقد امتدّت حياةُ ابن طفيل على أيام دولة المرابطين فدولة الموحّدين (وهما دولتان متعاقبتان في المغرب حكمتا الأندلس أيضاً) وقد عاش ابن طفيل مدّةً في مدينةِ غرناطة، وكتب (عمل كاتباً ووزيراً) لواليها الموحّدي.

وغَرْناطة مدينةٌ موصوفةٌ بالحُسن، وكانت تُسمّى أيّام الحكم العربيّ في الأندلس باسم: **دمشق الأندلس** فهي تشبهها من وجوه كثيرة: فإحاطة سهلها بها كإحاطة الغوطتين بدمشق، وإشرافُ جبلِ الثلج عليها كإشراف جبل الشيخ من بعيد على دمشق، واختراقُ نهر (حَدَرّو) مدينة غرناطة كاختراق بردى وفُروعه مدينة دمشق. وكان جُند دمشق قد نزلوا غرناطة منذ القديمِ، فاستحقّت غرناطة ذلك اللقب الذي يزيدها شهرة: دمشق الأندلس!

ووَصف الجُغرافيون غرناطة طويلاً، وممّا ورد في وصفها أن سَهْلَها أزْيدُ (أكبر) من مسافة يوم في مثله (طولها وعرضها متقاربان) ويحتاج الراكب إلى يومٍ ليقطَع المسافة ما بين أوله وآخره. والمياه تجري في بساتينه ومزارعــه من كل نوع، ويُلتقط من أنهارها بُرادة الذهب، وإلى مزايا كثيرة في هذه المدينة، ومحيطها الواسع .

وابنُ طفيل دَفينُ مرّاكش، فإنّه أدركته الوفاة في تلك المدينة من مدن المغرب. ويُترجَمُ لابن طفيل في الكتب الّتي اعْتنت بمن سكن مراكش، ومن نزلها وأقام فيها.

ومراكش مدينة في المغرب الأقصى، هي من بناء يوسف بن تاشفين أمير المُسلمين، وزعيم دولة المرابطين في القرن الخامس

الهجري (الحادي عشر الميلادي). ازدهرت في عصر المرابطين، وكانت هي عاصمةَ الدولة، ومن ثَمّ في عهد الموحّدين بعدهم. وقد كبرت المدينة وعظمت بصفتها السياسيّة، ومكانتها الاقتصادية والتجارية. وشجع الموحّدون العلماءَ والأدباءَ والمفكرين على ارتيادها والسكنى فيها، فصارت مركزاً فكرياً وحضارياً كبيراً.

وفي مدينة مراكش كانت وفاة ابن طُفيل، وبها دُفِن.

٢) ابن طفيل والزمان:

كان القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) مدّةً حافلةً بالأحداث في كِلا قُطري المغرب والأندلس اللّذين صارا يشكلان دولةَ واحدةَ منذ إعلان يوسف بن تاشفين، أميرُ المسلمين، نهايةَ عصرِ دولة الطّوائف (وهي الدّويلات التي جاءت بعد انهيار الدولة الأمويّة). وكان عصراً بائساً من النّاحية الدفاعية والسّياسية. فأكثرُ زعماء تلك الدّويلات كانوا دون مستوى المسؤولية الوطنية والقوميّة؛ وتعاون بعضهم مع الدول المُعادية ضد إخوانهم وجيرانهم!

- وقد أثمرت هذه الوحدة:

- اتّصالاً بين أرض المغرب الكبيرة التي كانت تحت حكم المرابطين، وبين الأندلس ديار المقاومة والجهاد ورد عدوان العدوّ؛

- نجدةً لأهل الأندلس ضد دول الشمال المعادية الطّامعة في أراضي الأندلس؛

- إنشاءُ دولة قوية: في السياسة، والاقتصاد، وفي تنظيم الجيش والدفاع.

• وحقّقت: استفادة الأندلسيين من قوة المرابطين، والمتطوّعة من العرب الذين كـــانوا في إفريقية (تونس) ومناطق مختلفة من شمال إفريقية الجغرافية، والذين جاؤوا نصرةً لإخوانهم في الثغور (الحدود)، وما يشبهها من مناطق الخطى.

واستمر حكم يوسف بن تاشفين [١] إلى سنة (٥٠٠ هــ - ١١٠٧ م) وكانت أيّامُه حسنةً في الأمور الداخليّة والخارجيّة. وخلّد التاريخ اسم يوسف في مواضع كثيرة أهمّها انتصاره على

---

(١) ولد يوسف بن تاشفين سنة ٤١٠ هــ (١٠١٩م). حكم المغرب منذ سنة ٤٣٦ وضم الأندلس إلى المغرب سنة ٤٨٤ وكانت وفاته بمرّاكش.

ملك قَشْتالة في (الزلاّقة) سنة (٤٧٩ هــ - ١٠٨٨ م) إضافة إلى سائر غزواته لإنقاذ الأندلس واسترداد أراضيها: بنفسه أو بجيوشه وقادته.

وخلفه ابنه أبو الحسن علي بن يوسف حكم من (٥٠٠ – ٥٣٧هــ، ١١٠٧ – ١١٣٤م) الذي سار على نهج أبيه، وكانت له وِفاداتٌ عل الأندلس (فقد كانت العاصمة هي: مراكش) يتفقد الأندلس ويتابع حركة الجهاد (الدفاع والمقاومة وحرب الاسترداد) ويشمل دوائر الدولة ومرافقها برعايته.

وحدثت في عهده – حيثُ كان ابن طفيل في مراحل ِسنّيه ِ الأولى حادثتان خطيرتان:

الأولى: كانت سنة (٥٠٣ هــ - ١١٩م) وهي حادثة كما وصفها مؤرخ الأندلس محمد عبد الله عنان "كبيرة الدلالة، عميقة الأثر بالرغم من عدم أهميتها الظاهرة" وهي اقتراحٌ شديدٌ من قاضي قرطبة ابن حمدين بمنع كتاب الإمام الغزالي (إحياء علوم الدين) والاحتفال بإحراقه أمام جامع قرطبة، وبموافقةٍ - بسبب إلحاح الفقهاء - من أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف. وأخذت الحادثة شكلاً احتفالياً يبتعد عن حرية الفكر، ويَسِمُ الحادثة بالتعصب الأعمى الذي لا مسوّغ له.

والمفارقة هنا أن يوسف بن تاشفين كان قد أثنى على الكتاب وراسل الإمام الغزالي؛ الذي كان على وشك الرحلة إلى لقاء يوسف، لولا وفاة يوسف سنة ٥٠٠ هـ .

والحادثة الثانية: كانت سنة ٥١٤ هـ. حين حدث صِدامٌ شعبي بين أهل قرطبة – وفيهم عدد كبير من العلماء – مع جند المرابطين بسبب اجتراء جندي منهم على سيّدة قرطبية: استغاثت المرأة وحدثت المواجهة .

ولما تدخّل الأمير علي بن يوسف وحلّ القضيّة في عبوره الرّابع إلى الأندلس بلغه نبأ مزعج أتى من المغرب. لقد ظَهر خصمٌ للدّولة، كانت له رحلةٌ إلى المشرق وجرأةٌ على انتقاد الدولة ورجالها، وحَزّب لنفسه حِزْباً ليقوّض دولة المرابطين؛ هو صاحب فكرة الدولة الجديدة المعروف باسم: محمد بن تومرت الذي ما لبث أن لُقِّب بالمهديّ. واستفاد من ثقافة (المهديّة) في الفولكلور الشّعبي، وتحرك بأنصاره ليحقق مأربه، وصارت الدولة تحت رحمة ضَرَباته.

بدأت الدولة الموحّدة – التي كان ابن طفيل أحد حسناتها – حركةً صغيرة[1] اضطلع بها (قام بأعبائها) فقيه متواضع:

---

(١) بدأت سنة ٥٢٤ بترشيحه عبد المؤمن بن علي لرئاستها، وتمت له البيعة العامة سنة ٥٢٦ في تينملّل، بالمغرب وأعطي لقب أمير المؤمنين، خلافاً للمرابطين الذين كانوا قد اكتفوا بلقب أمير المسلمين.

اضطرمت هذه الحركة وانتشرت سريعاً، وبعد صراعٍ قصير الأمد انتهت دولة المرابطين – إلاّ بقايا قليلة – وظهرت دولةُ الموحدين: قام بها محمد بن تُومرت السُّوسي، والمتّشح بثوب المهدي، والتي أسفرت عن قيام دولةٍ من أعظم الدول الإسلاميّة وأضخمها رُقعةً، وأعظمها قوةً، وسلطاناً وهي مثل دولة المرابطين: دولة قامت على عدد من قبائل البربر استظلّت بشعارها الخاص (لتقنع الناس بخلافها مع المُرابطين) وقامت في بدئها على شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد لَفَّق له بعض المؤرخين نسباً عربياً حسناً ولقّب نفسه بالمهديّ. وقد توفي "المهدي" سنة ٥٢٤، وعُيِّن عبد المؤمن بن علي أوّل خليفة للموحدين وكان أكبر مساعدي المهدي وقادة جيشه وذلك سنة (٥٢٦ هـ - ١١٣٣ م) وهو والد الخليفة: أبي يعقوب يوسف الذي يُذكر معه ابن طفيل كما سأوضح.

وهكذا صارت في المغرب دولتان متصارعتان، المرابطون والموحّدون. وكان الزمان يمهد لصعود الموحدين شيئاً فشيئاً.

ولكنّ سيطرة الموحدين على الأندلس تأخّرت قليلاً، فإن بيعة عبد المؤمن كانت سنة (٥٢٦ هـ -١١٣٣م) وتم القضاء على المرابطين سنة ٥٣٩ هـ حين توفي الأمير الثالث منهم المسمّى

تاشفين (٥٣٧ – ٥٣٩ هـ) وتسلم عبد المؤمن العاصمة مراكش سنة (٥٤١ هـ – ١١٤٨ م) .

وكانت الأندلس في بال عبد المؤمن. واهتمامه ولكنّه كان مشغولاً بتوسيع نطاقِ نفوذه وتوكيد ولاء القبائل والبلدان له، فاكتفى بإرسال بعض القوات، وبندب نفرٍ من الوِلاة، وفيهم بعض أبنائه، مع مساعدين لهم. ولم يدخل أولُ خلفاء الموحدين الأندلس إلاّ سنة ٥٥٥ هـ، بعد أن بُنيت له مدينة (مُصَغّرة) عند جبل طارق لينزل فيها، سمّاها: جبل الفتح أو مدينة الفتح.

وفي المدة الفاصلة بين انتهاء نفوذ المرابطين وأشياعهم في الأندلس وضبط الأمور للموحدين هناك، ظهر عدد كبير من مشتهي السلطة والحكم أو الذين تضطرم في نفوسهم الرّغبةُ في حكمٍ أندلسيٍ يرون الحاكمُ فيه من أنفسهم. وظهر في الأندلس ما عُرف بـــ: دول الطوائف الثّانية (فَقَد كانت دول الطوائف الأولى ظهرت بعد نهاية الدولة الأموية في أوائل القرن الخامس).

وكان هؤلاء الثّائرون قد أقاموا دويلات أكثرها هزيلٌ، كانت ضعيفةً أمام دول الشمال الطامعة في الأَرض والثّروات، وكان حكماً ميكيافلياً (وصوليّاً انتهازيّاً) يبحث عن مصلحته ولو كان

على حساب الوطن والمواطن معاً وكان أكثرهم يمدّ يده إلى العدوّ متعاوناً معه ضد بني قومه !

ومن هذه الدّويلات دولة ابن حمدين قاضي قرطبة، وابن هود الذي تَنقّل في أكثر من بلد، وابن جُزَيّ في جَيّان، وابن غانية في قرطبة وغيرها. وابن أضحى في غرناطة. وابن حسّون في مالقة .

وقام في وادي آش على مقربة من غرناطة "أحمد بن محمد ابن ملحان الطائي" وأعلن نفسه أميراً على البلدة وحَصّنها وبعض ما حولها. وتلقَّب من الألقاب السلطانيّة بالمتأيّد بالله، وعمل على تعزيز مركزه بكل الوسائل، واشتد في تحصيل المال والذخائر من فئات الشعب، واقتنى الضياع الواسعة، وتولى فلاحتها وحرثَها (أدار ذلك) حتى صار من أغنى أهل زمانه، وتغلب على بعض القواعد والحصون والقرى المنيعة القريبة مثل (بَسْطة) وضمّها إلى أملاك "إمارته" واستخدم في بلاطه الصغير عدّةً من مشاهير العلم والأدب في ذلك العصر مثل **أبي بكر بن طفيل** الفيلسوف الطبيب وأبي الحكم هرودس، واستطال عهده

عدّة أعوام وانتهت دولته بمزاحمة ابن مردنيش - أحد الثّوار بالأندلس – له، فعبر ابن ملحان إلى المغرب ودخل في خدمة الموحّدين(١).

وهذه المدّة الفاصلة بين اضمحلال نفوذ المرابطين في الأندلس واستتباب الحال للموحدين فيها تُعْرَفُ بـــ مدة دول الطّوائف الثانية كما أسلفت .

وكانت مدّةً بائسة ازداد انشقاق الأندلس فيها. وسقطت مدن وحصون وقرى ومواضع أندلسية في أيدي دول الشّمال وخاصة قشتالة، ودولة البرتغال من جهة الغرب .

وكان ابن طفيل حين خدم دُويلة أحمد بن ملحان في العقد الخامس من عمره (من الأربعين فما فوقها تقديراً). ولا شك في أنه كان قد نضج منذ زمان قبل أن يتولى منصب الكتابة في وادي آش. ولكنّ الصحيح أيضاً أنَّ ابن طفيل في هذه المرحلة تمرّس بالعمل الإداري، وعرف الخدمة السلطانيّة .

ونقدّر أنّ ابن ملحان حين لحق بعاصمة الموحدين مراكش وخَدم لديهم قد أَسْهَمَ في ترشيح ابن طفيل للخدمة عند أمراء

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس ٣/١: ٣٢٠.

الموحدين وخليفتهم، وهو بذلك يهدي السلطة الحاكمة هدية ثمينة، ويقدم لابن طفيل مزيّةً ذات أهميّة .

في سنة (٥٤٩ هـ-١١٥٤م) اختار عبد المؤمن ولده محمداً لولاية العهد (ليحكم بعده) وعَيّن أولاده في ولاياتٍ مختلفة في المغرب والأندلس، واختار لهم الوزراء والكتّاب، وفيهم ابنه أبو سعيد الذي ولاّه على سَبْتة (في برّ عُدْوَةِ المغرب) إضافة إلى (مالقة) و(الجزيرة الخضراء) من بلاد الأندلس، واستوزر له محمد بن سليمان، وسعدي بن ميمون الصّنهاجي، ومن الكتاّب الفقيه أبا الحكم بن هرودس، والفيلسوف أبا بكر بن طفيل[١].

وكان ذلك بحسب أحد مؤرخي تلك المدة سنة (٥٤٨ هـ) وابن طفيل في نحو الخمسين من عمره. اكتملت أدواته الفنيّة للكتابة والرسائل وأدواته الإدارية والديبلوماسيّة .

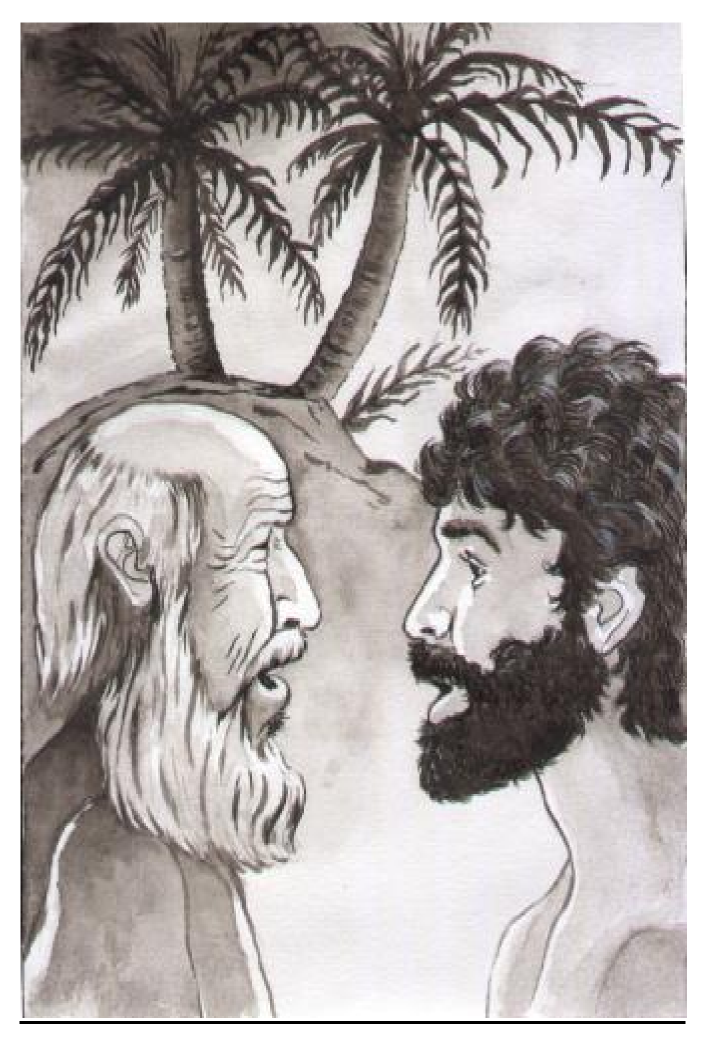
ولا شك في أن موقفه تَعزّز بخبراته الكثيرة، وخصوصاً في مجال الطبّ والمُداواة. هذا الفن الذي كان رائجاً في الأندلس من جهة، ومتقدّماً متطوراً من جهةٍ ثانية.

(١) المرجع السابق ٣/١: ٣٣٩.

ثم نلقى ابن طفيل بعد سنوات قليلة في إشبيلية التي كانت قاعدة الموحدين في الأندلس (عاصمة الإقليم كلّه). فقد تولّى هذه المنطقة من الأندلس أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥١هـ وانتظم حول أبي يعقوب في إشبيلية وباختيار منه لفيف من أهل العلم والفكر والأدب والفن وكان في مقدمتهم أبو بكر بن طفيل. وقد أدّت ولاية أبي يعقوب على إشبيلية إلى ازدهارها في العمران، وفي الصّنائع، وفي الحركة العلمية والأدبية والفنية.

ولما صار أبو يعقوب هو الخليفة بعد وفاة أبيه سنة :(٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م) كان اسم ابن طفيل بين أسماءِ أطبائه الذين يعالجونه أو يحيطون به. بل كان هو الأثير المفضل. وانتقلت العلاقة بينهما إلى صداقة قويّة معزّزةٍ بتعيين إداري رسمي. ولنا كلام على أثر صحبة ابن طفيل للخليفة في جوانب العلم والفكر والأدب وسائر الفنون .

وحين توفّي أبو يعقوب سنة (٥٨٠ هـ - ١١٦٣ م) كان معه في حاضرة مرّاكش بالمغرب أبو بكر بن طفيل، وقد استمر مقرّباً من البلاط في عهد ولده أبي يوسف يعقوب الذي لُقِّب بالمنصور، ولكن خدمته لم تستمر طويلا فقد توفي سنة (٥٨١ هـ - ١١٨٥ م) في مرّاكش، وحضر الخليفة جنازته تقديراً له ولمكانته العالية..



علاقة وثيقة مع أبي يعقوب

كان من الظروف المُوَاتية لابن طُفيل معاصرته للأمير الموحّدي أبي يعقوب يوسف الذي صار فيما بعد الخليفة الحاكم، والمُهيمن على أطراف الدولة في المغرب والأندلس، فإن هذا الخليفة أحَبّ العلم منذ طفولته وصباه وشبّ على ذلك، وقرّبَ العلماء والأدباء وأصحاب الإبداع، وكان ابن طفيل من أكثرهم قُرباً منه .

وكان هذا الخليفة مشغولاً بتحقيق العدالة، ورفع الظلم عن الرعية والضرب على أيدي الفاسدين والمرتشين، وتشييد دولةٍ عصريّةٍ قويّة وكان حاملاً هَمّ الأندلس والدّفاع عنها واسترداد ما ضاع منها. وكان إلى ذلك كله، على الرّغم من مشكلات الحكم وأعبائه، يلتفت إلى العلم وأهله ويقتني الكتب ويشارك في مسائل من العلم كثيرة .

وقد وصف أحدُ المؤرخين صلة أبي يعقوب بالعلم وأهله فقال: إن ألمع وأعظم خَلَّةٍ (خَصْلة) كان يتّسمُ بها أبو يعقوب هي علمه وأدبه، وقد أفاضت الروايات المعاصرة له، واللاحقة في التنويه بمواهبه العلمية والأدبية، ومنهم المؤرخ المعاصر لأبي يعقوب ابن صاحب الصلاة الذي قال ما نصّه: كان الأمير أبو

محذوف:

يعقوب يوسف كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً مُستظهراً للقرآن حافظاً له، عالما بالحديث متقنا للعلوم الشّرعيّة والأصولية، ومنهم المراكشي الذي قال فيه: كان أعرفَ الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام .

لقد استفاد أبو يعقوب من أبيه عبد المؤمن الرّوح العلميّة الوثّابة، ونذكر هنا أنه قضى زهرةَ فتوّته في مدينة إشبيلية، منذ عيّنه أبوه والياً عليها سنة (٥٥١ هـ ١١٥٦ م) وهو في نحو الثامنة عشرة حتى وفاة أبيه سنة (٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م) حين استُدعي لتولّي الخلافة بعده. هناك تفتّحت مواهب الأمير العلمية والأدبية، وقد كانت إشبيليةُ يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعُلوم الدينيّة، والدنيويّة.

وحين عاد أبو يعقوب إلى الأندلس، وهو خليفة، أقام نحو خمس سنوات في إشبيلية، وقد تجلّت في هذه المدّة "روعةُ مواهبه العلمية" وجنح (مال) إلى دراسة الفلسفة والطبّ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أقطاب التّفكير الإسلامي هم: طبيبه الخاص أبو بكر بن طفيل الوادي آشي وتلميذ ابن طفيل: أبو الوليد بن رشد، والطبيب العبقري، الشاعر الوشاح (ينظم الموشحات الأندلسيّة) أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي.

وتقول أخبار الخليفة، وابن طفيل معاً إن الخليفة كان يُشْغفُ بالأخص (يهتمّ اهتماماً خاصاً جداً) بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ولا يصبر على فراقه .

ابن طفيل وتلميذه ابن رشد

حكى الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (الحفيد) أنَّ أستاذه أبا بكر محمد بن طفيل استدعاه يوماً وقال له: سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه (يشكو من عدم وضوح العبارات وعدم وضوح مقاصد الكلام) ويشكو – أي أمير المؤمنين – من غموض أغراض أرسطو (بحسب الترجمات المتوافرة) ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخّصها، ويقرّب أغراضها بعد أنْ يفهمها فهماً جيداً (أي لو وُجِدَ من يفعل ذلك) لَقَرُب مأخذُها (فهمها) على الناس.

وتابع ابن طفيل مخاطباً ابن رُشد: "فإن كان فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أنْ تفي به (أن تعمله على وجه جيد حسن) لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك، وقــوّة نزعك (ميلك) إلى الصّناعة . (معرفة الفلسفة خاصّة).

واعتذر ابن طفيل عن عدم النهوض بما طلبه الخليفة الموحّدي بتقدّم السّنّ وكثرة الأشغال التي يكلفه بها الخليفة، واهتمامه بمسائل علمية أُخرى ذات أهميّة .

قال أبو الوليد بن رشد "فكان هذا [السبب هو] الذي حَملني على تلخيص ما لخصته من كتب أرسطو طاليس.." [(١)].

ونلاحظ هنا :

١ - ثقافة الخليفة الموحدي، وخلفيّته العلميّة القويّة بصفة عامة .

٢ - عنايته بالطب والفلسفة، وهما موضوعان يكونان في العادة بعيدين عن رجال السّياسة وإدارة أمور الدّولة .

٣ - تقريب الخليفة لابن طفيل. وإذا فسّرنا هذه الأخبار من النّاحية السّياسية قلنا: إن ابن طفيل حظي من الخليفة بدرجة المستشار العلمي والثقافي إضافة إلى كونه طبيبه الأثير لديه (المفضّل أو الخاص).

٤ - قيام ابن طفيل بمهمة صلة الوصل بين الخليفة وبين رجال الفكر والعلم، وتقديم النّصيحة للخليفة في شؤونهم، وتعريفه بخصالهم ومزاياهم ومواهبهم.

---

(١) المعجب للمراكشي: ٣١٥.

٥- تحريك الجو الفكري والثقافي في الدَّولة بناء على توجيه الخليفة من جهة ونصائح ابن طفيل التي كانت إيجابية وموضوعيّة.

ونذكر هنا أن الخليفة سأل ابنَ طُفيل أن يُعِدَّ دراسة وترجمة لكتب أرسطو لأنّ الموجود في التّداول نصوص فيها غموض وعدم وضوح. وقد كلّف ابن طفيل تلميذه وصديقه ابن رشد بهذه المهمة ورسم له المنهج، ونتج عن ذلك كتبٌ ألّفها ابن رشد في هذه الموضوعات رفعتْ شأنه في تاريخ الفكر العربي وحجزت له مكانةً عاليةً في تاريخ الفكر الأوربي الغربي.

٥- إنشاء الخليفة مكتبة عظيمة جمعت آلاف الكتب العلمية والأدبية، وخاصة الفلسفية والطبيّة والفلكيّة. وقد نتج عن اهتمام أبي يعقوب العظيم أنّه ألّف كتاباً عن (الجهاد).

لقد كانت مآثر الخليفة الموحد أبي يعقوب في هذا المجال جزءاً مهماً من أوجه نشاطه في العمران وحسن الإدارة، وتطبيق العدل، وتقوية الجيش، والحركة للدفاع عن البلاد والعباد.

واستحق اللقب الذي أطلقه عليه لسان الدين بن الخطيب، وهو: «نجم بني عبد المؤمن» يعني دولة الموحدين.

ثم نقول عَوْداً على بَدْء: لقد أتيح لابن طفيل أن تظهر مواهبه واستحق لجده واجتهاده ومتابعاته الواسعة وذكائه أن يكون علامةً بارزةً في تاريخ الفكر العربي عامة، والأندلسي خاصّة، وننوّه بآثاره العلمية في الطب والفلسفة خاصّة.

أسرة ابن طُفَيل

عرفنا من نسب ابن طفيل – كما ورَد في كتب التراجم – أنه: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد القيسي. ولا نعرف فوق جده الأعلى (جد أبيه) اسماً آخر .

ويظهر أن أبا بكر هو أول رجل يظهر من هذه الأسرة ويشتهر في الأعمال السلطانية (الإداريّة كالكتابة والوزارة..) وفي الجانب العلمي (الطب، والفلك، والفلسفة...) وما نسمّيه الآن بالعلوم الإنسانية (العلوم الشرعيّة، والأدبية واللغوية، والتاريخ..).

وابن طُفيل، كما لاحظ بعض دارسيه[1]، لا ينتمي إلى تلك الطبقة من الفلاسفة الذين انحدروا من أسر معروفة مشهورة، كأبي العلاء المعرّي (في المشرق) وابن رشد وابن خلدون (في

---

(١) ابن طفيل وقصة حي بن يقظان د. عمر فروخ: ٢٩.

محذوف:

الأندلس والمغرب) بل ترانا (نجد أنّنا) لا نعرف شيئاً عن أسرته اللهم إلا عن كونها ترقى بنسبها إلى قبيلة (قيس) المشهورة..

لقد أصّلَ ابن طفيل لأسرته مجداً علميّاً عظيماً، ونقل إلى نفر منهم هذه المزيّة: الحرص على العلم والتفاني في رعايته، وخدمته، ونشره بين النّاس. وقدم لأسرته أيضاً صلة حسنة بالدولة القائمة آنذاك. لقد جمع ابن طُفيل بين مجد العلم، وصحبة السلطان (الحاكم) دون أن تكون هذه الصّحبة جائرةً على مركزه العلمي، ولا منتقصةً من شخصيّته وقد مر بنا أن الخليفة أبا يعقوب كان يفضل ابن طفيل ويقرّبه، ويتّخذه مستشاراً في أمور كثيرة.

وقد استمر تيّار العلم والفكر والثقافة جاريا في أُسرة أبي بكر ابن طفيل، نعرف منهم ابنه، وهو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر ابن طفيل وكان أديباً كاتباً شاعراً، وله مؤلفات منها كتاب عن بلده (الأندلس) واشتغل كاتباً لدى أحد أمراء الموحّدين الملقب بالعادل (تولّى خلافة الموحدين من ٦٢١ – ٦٢٤).

ومن شعره (في كتاب المغرب لابن سعيد ٢:٨٥):

[من بحر الخفيف]

وغَـدَوْنا بكـل خَيْـرٍ ولكـنْ	ليس في كَفّنا سوى التُّرّهـاتِ
وهم أَلْكَنُ الأنام بِــ(هـاكٍ)	وهم أفصح الأنام بــ(هاتِ)

(التُّرَّهات: جمع الترهة، وهي الأباطيل. يُذكِّر نفراً من أهل عصره ويقول إنهم لا يقولون لأحدٍ: خُذْ فهم كالخُرْس عند الحاجة إليهم، ولكنهم فصحاء ينطلقون بالكلام في قول: هات!).

وقد وردت سلسلة من أربعة أجيال موصولة بأبي بكر بن طفيل من أولاده وأحفاده، في خبر نقله المقري (في نفح الطيب ١:٦٠٧) عن ابن رشد السبتي وهو يذكر عناية الموحدين بمصحف عثمان (t) قال: «مما أطرفنا به (أخبرنا به وفيه طرافة وأهمية) الوزير الأجلّ أبو زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى، بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي.. ممّا استفاده وأفاده من كتاب جده (والد جده) الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل..» إلخ فابن الحفيد يحيى كان وزيراً وكاتباً.

فهي أسرة مُنجبة: اشتغلت بالعلم، وظلت صلتها موصولة بفن الكتابة وبالأمــور الإدارية، والسياسية (نفخ الطيب ١:٦٠٧).

وذكر ابن سعيد في (المُغرب) رجلاً آخر من بني طفيل، ولم يذكر صلته بأبي بكر الفيلسوف، ولكنه تحدث عنه في أعلام

(حصن تاجله) من أعمال مدينة بَسْطة التي نسبهم إليها، وهو: أبو القاسم بن طفيل سكن مالقة وكان يكتب (كاتب و وزير) عن ولاتها من ملوك بني عبد المؤمن (وهم خلفاء الموحدين) ،ومن شعره قوله في الرثاء :

[من بحر الكامل]

مازلت أنْدب في (الدّيار) مكانها وكأنّه ما كان فيهـا عـامرا

وكأنّني لم أَجْن ِ منها روضــةً وكأنني لم أَثْن ِ غُصْناً ناضــرا

وكأنّني واللّيلُ أرخــى سِـتْره لم يُبْد ِ لي منها هلالاً زاهــرا

وواضح أنه من هذه الأسرة الكبيرة، وإن لم نعرف صلته بابن طفيل الفيلسوف، وحقيقة قُرْباه ..

أعباء وأعمال

١ - بدأت صلة ابن طفيل بالعمل، بحسب ما لدينا من أخباره، وقد اكتمل علماً، وثقافةً ومقدرة ًعلى تحمّل أعباء الأمور التي يكلّف بها فقد بدأ كاتباً في وادي آش مدينته التي ينتمي إليها حين سيطر عليها بنو ملحان، وكتب لأحمد بن ملحان الطائي مدة غير معروفة، ولكنها كانت كافة لإبراز اسمه في العمل الإداري ،والسياسي. ومعلوم أن (الكاتب) في الأندلس يكون في الأغلب هو الوزير.

واستمر في عمل الكتابة حين آلت الأمور في الأندلس إلى الموحدين، كما فصلنا في مجال آخر من هذا الكتاب

٢ - وعمل ابن طفيل في بعض مراحل حياته قاضياً.

٣ - واشتهر، وعمل، طبيباً مرموقاً، حتى إنّه ترقى فصار من أطباء خلفاء الموحدين، ثمّ صار الطبيب الخاص للخليفة أبي يعقوب .. وقد ألّف في علم الطب أيضاً.

٤- وكان مستشارا ًللموحّدين، وخصوصاً في عهد أبي يعقوب الذي كلفه أكثر من مرّة بأعمال استشارية.

٥- ودخَل عالم التّأليف، ويكفيه كتاب (حي بن يقظان) أهميةً وشُهرة... وقد ختم الدكتوران: جميل صليبا وكامل عياد مقدمتهما على تحقيق (حي بن يقظان) بهذه العبارة:

«إنها تمتاز عن غيرها من القصص الفلسفية الشّرقية بالقرب من الحقيقة الواقعة، وبالوصف الطّبيعي، والتفصيلات الدقيقة عن الحياة العلمية، هذا عدا عن رشاقة الأسلوب وسهولة العبارة، وحُسن الترتيب، وهي بهذه المزايا تعدّ – ولا شكّ – في مقدمة الآثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ الفكر البشري».

أساتذته، ومعاصروه، وتلامذته :

ذكر ابن الخطيب[1] اثنين من أساتذته وهما أبو محمد الرُّشاطي، وعبد الحقّ بن عطيّة، وألمح إلى (غيرهما) ولم يسمّ..

والرشاطي (أبو محمد عبد الله بن علي اللّخْمي الأندلسي من أهل اَلمرِيّة) كان من علماء الحديث والرجال ورواة التاريخ. وكان شخصية مشهورة، وتخرج على يديه أساتذة وعلماء كبار (٤٦٦-٥٤٢هـ).

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ٢:٤٧٨ .

وابن عطية (عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة) من أهل غرناطة، من علماء التفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو والأدب واللغة، عمل قاضياً ودرّس، وكان كما ذكر ابن الخطيب في ترجمته - غاية في الدّهاء والذّكاء، والتّعمّم (الاهتمام) بالعلم، وكان جمّاعاً لنفائس الكتب، كاتباً شاعراً وله (المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز) وهو مطبوع (٤٨١ - ٥٤٦ هـ).

وذكر المراكشي في (المُعجب) وابن خلكان في (وفيات الأعيان) أنّ من أساتذته ابن باجة الأندلسي.. وهذا وهم، فإن ابن طفيل أقرّ بتلمذته على كتب ابن باجة أحد كبار فلاسفة الأندلس، ولكنه قال: «.. فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل، ونحن لم نلْقَ شخصه»[١].

ومن هنا قال الدكتور فرّوخ في دراسته عن ابن طُفيل إنّه بلا ريب كان من آل باجة، أيّ من أتباعه في فلسفته، فلقد اتبعه في طريقة تفكيره[٢] وابن باجة رياضي وفلكي راصد، واسع العلم في الطبيعيات والموسيقى، وكانت له تلاحين خاصة من ابتكاره. واشتهر بالفلسفة والطب ونظم الشعر واشتغل بالطب وعمل كاتباً

---

(١) حي بن يقظان – طبعة جامعة دمشق ١٣٧٢ – ١٩٦٢ ص: ١٢ .

(٢) ابن طفيل – د. عمر فروخ: ٣١ .

ووزيراً (ولد ٤٧٥ هـ - ١٠٨٢م) وتوفي بمراكش (٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م) وله كتاب: تدبير المتوحّد - وكتب أخرى.

ومعاصروه من أهل العلم كثر في طليعتهم بنو زهر الإشبيليون الذين كان لهم اسم ذائع وصيت عريض في الطب، والصيدلية، والأدب والشعر وصناعة الموشحات الأندلسية.

وأشهر تلامذته: ابن رشد (الحفيد) والبُطروجي وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويعرف بابن رشد الحفيد، فقد كان جدّه (محمد) يعرف بابن رشد الجد. وكان مشهوراً بالعلم أيضاً. وابن رشـد تلميذ ابن طفيل، كما وصفه د. عمر فروخ: «أعظم فلاسفة الإسلام ومن أعظم فلاسفة العالم، وأشدّهم تأثيراً في تاريخ الفكر الإنساني». ولابن رشد كتب كثيرة، منها ما هو مطبوع متداول.

- والبُطروجي هو أبو إسحاق، نور الدّين البُطروجي، رياضيّ ألّف في علم الهيئة. ويبدو أن أستاذه ابن طفيل[1] هو الذي اقترح عليه أن ينقد نظام بطليموس في الفلك، واقترح عليه وجه النقد، وألّف البطروجي كتابه بعد وفاة أستاذه .

---

(١) ابن طفيل وقصة حي بن يقظان: ٣٣ .

- وعدّ المراكشي في كتابه (المعجب) من تلامذته أبا بكر بندود بن يحيى القرطبي، وروى عنه بعض أخبار ابن طفيل وأشعاره.

وكان ابن طفيل محباً لتلامذته، ساعياً في مصالحهم، مقرّباً لهم عند الخليفة الموحّدي، وأهل السّلطة. وهذه مزيّةٌ عظيمةٌ في العلاقات بين أهل العلم.



قصة حي بن يقظان




الهيئة العامة
السورية للكتاب

قضية التوحّد والتوحّش

بعد الشّهرة الواسعة التي حَظيتْ بها قصّة (حيّ بن يقظان) كَثُر الكلام في الدّراسات والبحوث القصصية والفلسفيّة والاجتماعيّة والتربويّة والطبيّة أيضاً على أثر هذه القصة وتداعياتها المختلفة في ثقافات أمم مختلفة. لقد أسهمت الترجمات الكثيرة للقصة في اتساع دائرة المهتمّين بها أو بجوانب منها. واستفاضت هذه الشهرة، وتعددت وجوه الاستفادة منها في الحكايات، والقصص، والخيال العلمي، واستغلتْها السينما في شخصية (طرزان) وغيره كما سأبين .

١- وُجِدت في بعض النّصوص الأدبية القديمة إشاراتٌ إلى فكرة الولد المتروك وحيداً في الطبيعة. وهي تدخلُ في حيّز الحكايات الشّعبية والأساطير، في أكثر من بلد .

٢- هناك حكايات وأساطير حكت عن إرضاع بعض الحيوانات لأطفال تائهين أو متروكين، كما سجّلت بعض الأخبار

قصصاً حقيقيّة عن أطفال ذكور وإناث عاشوا في الأدغال بحضانة حيوانات إلى حين اكتشافهم .

ويقرّر بعض الدّارسين(١) بناءً على أخـبار متفـرقة أنّ فكرة وجود ولد مفقود أو مُسيّب (المراد: متروك، أهمله ذَوُوه) يعثر عليه حيوان فيقوم بإرضاعه وحضانته هي فكرة ليست خياليّة، بل تقوم على حوادث واقعية لا شك أنَّ كثيراً منها حدث واقعياً، وكان معروفاً في عصر ابن طفيل، وقبله إنّما لم يقيّد ضبط هذه الحوادث علميّاً إلا اعتباراً من سنة ١٣٤٤ م بحسب بيان إحصاء مالسون الإحصائي عن الأولاد المتوحّشين) أي بعد وفاة ابن طفيل بمئة وتسع وخمسين سنة .

(١) تاريخ الفكر العربي – د. عمر فروخ: ٦٢٥ وما بعدها.

قبل قصة ابن طفيل وبعدها

عرف عنوان (حيّ بن يقظان) قبل قصة ابن طفيل[1] هذه، وعُرِف أيضاً الاسمان اللّذان تردّد ذكرهما فيها: (سلامان) و(أبسال) لكن ابن طُفيل «هو الذي جعل من هذا العنوان» حيّ بن يقظان «ومن هذين البطلين في القصة أبسال وسلامان قصّة تامّة، وعالج فيها موضوعاً فلسفياً كاملاً».

(١) هناك قصة ترجمها عن اليونانيّة حنين بن إسحاق العبادي (١٩٤-٢٦٠ هـ يقابل ٨١٠-٨٧٣ م)، وهو طبيب، مؤرّخ ، مترجم من أهل الحيرة في العراق، وكان سلامان في هذه القصة اسم الولد وأبسال اسم المرضعة الّتي ربّته .

(٢) وأورد **ابن الأعرابي** قصّة رجلين وقعا في الأسر أحدهما مشهور بالخير واسمه سلامان، والآخر مشهورٌ بالشرّ واسمه أبسال. فَفُدي سلامان لشهرته بالسلامة.. وأمّا أبسال فلأنه مشهور بالشّر بقي في الأسْر حتى هلك.

---

(١) تاريخ الفكر العربي - عمر فروخ: ٦٢٥ وما بعدها

(٣) **لابن سينا** قصة مؤدّاها أنّ سلامان وأبسالاً كانا أَخوين شقيقين، وكان أبسال أصغرهما سنّاً، تربّى على يدي أخيه، وكان عاقلاً متأدّباً شجاعاً، وكان محطّ نظر امرأة سلامان واهتمامها، وتطوّرت الأحداث إلى أن قتلت أبسالاً بالسمّ لأنّه لم ينفّذ رغباتها. حزن سلامان ثم عرف - بالإلهام - بما صنعت زوجته بأخيه فسقى زوجته وكل من ساعدها السمّ .

وهي قصصٌ رمزيّة، فسلامان في قصّة ابن سينا هذه مثل للنّفس الناطقة، وأبسال مثل للعقل النَّظري، وامرأة سلامان رمزٌ للقوّة البدنيّة الأمّارة بالشّهوة والغضب .

(٤) **ولابن سينا** أيضا قصّة بعنوان (حي بن يقظان) والاسم رمزي أيضاً فــ(حي) من الحياة، و(يقظان) من اليقظة والانتباه. ومؤدّى هذه القصّة أن رجلاً شيخاً خرج سائحاً من مدينة بيت المقدس ليرى عجائب صنع الله في العالم. وفي القصة: زهد وتصوّف، ورمزٌ كثيرٌ ثم نقمة على أكثر طبقات البشر .

(٥ و ٦) هناك قصّتان جاءتا بعد قصة ابن طفيل إحداهما للصّوفي الشهير: السهروردي (توفي قتيلا سنة ٥٨٧ هــ - ١١٩١ م)، عنوانها أيضاً: حي بن يقظان، والثانية للطّبيب والمفكر الشهير ابن النّفيس المتوفّي سنة ٦٨٦ هــ - ١٢٨٨ م .

الغُربَةُ الغربيّة

في مجال الرد المباشر، أو غير المباشر على نظرات ابن سينا الفلسفية وآرائه ألّف السهروردي رسالته التي سمّاها (الغُربة الغربيّة).

والمؤلف المشهور هو أبو الفتوح شهاب الدّين يحيى بن حبيش بن أميرك المعروف بالشيخ الحكيم المقتول: ولد ٥٥٠ - ١١٥٥ م. ومات قتيلاً سنة ٥٨٧ هـ ١١٩١م. كان فقيهاً ثمّ مال إلى علوم الأوائل وخصوصاً الفلسفة والكيمياء، واتّخذ مذهباً صوفياً متطرفاً[١] واستمد من الفلسفة اليونانية وإخوان الصفا وابن سينا. واصطدم بالعلماء والفقهاء وله قصّة الغُربة الغربية[٢].

---

(١) ترجم له من المعاصرين د. عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ٣:٤٠٣ .

(٢) نشرها الأستاذ أحمد أمين في كتاب (حي بن يقظان) لابن سينا وابن طفيل و السهرودي- دار المعارف بمصر – ١٩٥٩.

لم يكن السهروردي راضٍ عن قصّة ابن سينا [١] تمام الرِّضى، فقد وجدها تحكي عمّا هو في الأرض، وليس عمّا هو في سماوات الروح، وتنشغل بالقوى الإنسانيّة بأكثر مما تشير إلى الحقائق الروحانيّة ..

ألّف قصته معتمداً على الإيجاز والقصر، مكتوبةً للخاصة لا للعامّة، وهي رحلةٌ ذوقية تعبّر عن سفر الروح وعروجها إلى الملكوت الأعلى. فالرحلة عند ابن سينا أرضيّة تتشوّق للعروج وعند السّهروردي رحلة اتخذت خطّاً عروجيّاً سماويّاً..

والرّحلة تمت من بلاد ما وراء نهر جيحون (والنهر إشارة إلى الحياة الدنيوية إلى بلاد الغرب (إشارة إلى المجهول المقابل)، وكان يراد من الرحلة صيد مجموعة من طيور ساحل اللجة الخضراء (إشارة إلى النّفحات الإلهية التي تترقبّها أرواح العارفين بالزّهد وصالح الأعمال. وقد جعل المغرب المقابل الذّوقي للوجود الإنساني، فهي العالم الروحاني الذي يقابل العالم الحسّي. والرّفيق في الرّحلة هو العقل الإنساني المشار إليه في القصة باسم (عاصم) وهو رمزي لأنّ العقل يعصمُ الإنسان من الزّلل..

---

(١) حي بن يقظان - فاروق سعد: ٩١.

فاضل بن ناطق

أو: الرسالة الكاملة في السّيرة النّبوية لابن النفيس

ابن النّفيس هو ذلك العَلَم المشهور في عالم الطبّ: علاء الدين علي بن أبي الحرم القرشي، المتوفي سنة ٦٨٧. نشأ في دمشق، وتلقى علوم العصر، فبرع فيها ونبغ فألّف كتباً كثيرة، وكان علامةً بارزاً في الطبّ في التّراث العربيّ، وهو مكتشف الدّورة الدّموية الصّغرى، وسجلها تاريخ الطب باسمه قبل وليم هارفي بزمن طويل.

وقد قال ابن فضل الله العمري في ترجمته :

«وقد رأيت له كتاباً صغيراً عارضَ به رسالة حي بن يقظان لابن سينا، ووسمه (عنْونه) بعنوان **(فاضل بن ناطق)**، وانتصر فيه لمذهب أهل الإسلام (يعني مقابل آراء الفلاسفة) ونظريّاتهم


الأرجوزة في الطب

في النُّبوَّات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم. ولعمري لقد أبدع فيها، ودلّ على قدرته، وصحّة ذهنه وتمكنه في العلوم العقلية».

والقصّة ردّ على ابن سينا في آرائه الفلسفيّة، وانْ لم يذكر ابن سينا بالاسم، وجعل روايته باسم (كامل) إشارة إلى الكمالات النبوية المحمدية، كما هو ظاهر من الاسم الآخر للقصّة.

وقد أبرزَ ابن النّفيس، في قصّته الفضيلة في مواجهة العقل، ورتّب كلامه على فنون:

١ - كيفية تكوُّن الإنسان المسمى بـــ (كامل) وكيفية وصوله إلى تعرّف العلوم والنبوات.

٢ - كيفية وصوله إلى تعرف السيرة النبويّة .

٣ - كيفية وصوله إلى السنن الشرعية .

٤ - كيفية تعرفه إلى معرفة الحوادث الشّرعية التي تكون وفاة خاتم النّبيين صلى الله عليه وسلم .

وقد قصد ابن النفيس إلى إبراز أهمية الرسالة والشّريعة للعقل الإنساني، وإبراز المرتبة التي تلي الانتباه واليقظة: مرتبة

الفضيلة والكمال. وهو يقدّم قراءة خاصّة (مختلفة حتماً عن توجهات ابن سينا وآرائه الفلسفية المخالفة). ويعبر عن مواقف الجماعة فيما يخصّ التاريخ ودول الإسلام[(١)].

وكانت الغاية الأولى لابن النفيس الوصول إلى :

- ضرورة النّبوّات للبشر .
- إنّ العقل لن يصل إلى الملكوت الأعلى بغير العناية الإلهيّة المتمثّلة في النّبوة .

---

(١) حي بن يقظان - فاروق سعد :/ ١٠٣.

بُلدان ورجال تتردّد أسماؤهم

في قصة حيّ بن يقظان

هناك عدد من الأعلام (الرّجال والبلدان) يتردّد في قصة ابن طفيل :

١) هناك **جزيرة "الوقواق"** وهي الجزيرة التي يولد فيها الطّفل من غير أبٍ ولا أُمّ وبها شجرٌ يثمرُ نساء "ومن أرض هذه الجزيرة وُلِدَ حي حسب المقولة الأولى عن مولده بـــ(النشوء الطبيعي)، وفي هذه الجزيرة عاش حي بن يقظان، وكانت خاتمته.

٢) وهناك جزيرةٌ عظيمة، واسعة ُالأَرجاء، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس كانت بالقرب من تلك الجزيرة. وفي هذه الجزيرة أنجبت شقيقة الملك من قريبها (يقظان) الطّفل المسمّى بـــ(حيّ) وضعته في تابوت (صندوق) وألقته في اليمّ (وهذا يذكرنا بقصة موسى عليه السلام) فحمله الماء إلى ساحل جزيرة الوقواق حيث عاش. (وهي المقولة الثانية في كيفية نشأة حيّ) .

٣) والمكان الثّالث الذي تدور فيه أحداث قصة حي بن يقظان هو **جزيرة ٌقريبة** من الجزيرة التي وُلِدَ بها حي، أو وُجِدَ، وهي التي ينتمي إليها (أبسال) ويحكمها (سلامان).

- ولم يضع ابن طفيل اسماً للجزيرتين الأُخريين .

- وقيل في تعليل تسمية جزيرة الوقواق أن ابن طُفَيل أراد أن يغطّي خُطورة الرواية الأولى عن ولادة حي بالنُّشوء الطبيعي - كما سأبيّن - دون أب و دون أمّ، والاحتياط لنتائج إيراد هذه الرّواية بالتذرّع بأن الأمر لا يعدو كونه أسطورة بدليل المكان الأسطوري (الوَقواق)، وأراد أيضا بحسب هذا التحليل أن يُضفي طابعاً خيالياً مشوّقاً يستأثر بفضول القارئ، ويثير اهتمامه .

٤) أبسال و **٥) سَلامان**:

أبسال وسلامان في قصة حي بن يقظان رجلان كانا في جزيرة قريبة من الجزيرة التي نشأ فيها حي (أو وصل إليها بحسب الرّواية الثانية في القصّة).

وكان قد وصل إلى الجزيرة المذكورة دين من الأديان الصّحيحة المأخوذة عن الأنبياء المتقدّمين فتقبّلاه معاً، وقال ابن طفيل في القصّة :

«... وكان قد نشأ في تلك الجزيرة فَتَيان من أهل الفضل والرّغبة في الخير يسمى أحدهما أبسالاً، والآخر سلامان، فتلقّيا تلك الملّة (الدّين) وقبلاها أحسن قَبُول.." [١].

أمّا (سلامان)، وهو حاكم الجزيرة فكان يفهم الدين حق الفهم، ولكنّه يأخذ بظاهره، ويجاري العامة في أعمالها الدينية، وكان بطبعه أَبْعد عن التّفكير العميق في الدين وأقرب إلى العامة .

وأما (أبسال) الذي كان يفهم الشّريعة مثل سلامان فقد كان فيه طبعُ العُزْلة، والانفراد والنّفور من العامّة، وحبّ التفكير في أمور الدّين ...

٦) **حَيّ بن يقظان**، وهو اسم سبق بأن أورده ابن سينا على وجه مختلف وهو عنده اسم للعقل. ولكن حي بن يقظان كما صوّره ابن طفيل هو اسمٌ لإنسان يُعْمِلُ عقله وذوقه..

---

(١) حي بن يقظان (جامعة دمشق): ٨٤.

مدخل إلى القصّة

في مقدّمة تحقيق أحمد أمين لحيّ بن يقظان ملاحظات فيها وفي قصّة ابن سينا، والسهروردي ونقتطف من مقدمته عن قصة ابن طفيل: حي بن يقظان «رسالة»[1] بناها ابن طُفيل على نظريه له، وهي أنّ في وُسْع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول، إلى الله، بحيث يستطيع بعقله أن يصل إلى معرفة العالم ومعرفة الله. وعنده أن المعرفة تنقسم إلى قسمين :

- معرفة حدسيّة.
- معرفة نظريّة .

أو بعبارة أخرى: معرفة مبنيّة على الكشف والإلهام كالتي عند الصّوفية: ومعرفة مبنية على المنطق كالتي عند العلماء.

---

(١) تطلق الرسالة أيضا على الكتيب أو الكتاب الصغير يكون عادةً في موضوع محدّد.

أما الأولى فيمكن الوصول إليها برياضة النفس فتنكشف لها الحقائق كأنها نور واضح لذيذ يومض إلينا حيناً ثم يخبو حيناً آخر.

وكلما أمعن الإنسان في الرياضة تجلّت له المعارف .

وأمّا النّوع الثّاني من المعرفة فهو مؤسّس على الحواسّ، والمعرفة بالحواس تتألف وتتركّب وتُستنتج منها نتائج علمية هي أيضاً نوع من المعرفة التي يسمّيها المعرفة النظريّة.

وقد جعل ابن طُفيل يسلكُ هذين الطّريقين فتارةً يصلُ إلى معرفة الأشياء بحواسّه ومركّباتها، وتارة يصل إليها بطريق الكَشْف .



قصة حي بن يقظان في قسمين

جعل ابن طفيل قصته (حي بن يقظان) في قسمين اثنين، مُتَواليين.

القسم الأول: صغير جداً، وفيه ذِكر السبب الذي من أجله ألّف كتابه هذا، وفيه استعراض لآراء نفر (مجموعة) من فلاسفة الإسلام، في الأغلب، مع شيءٍ من التحليل والنّقد، ثم الإشارة إلى أنه سيتبع في عرض آرائه أسلوب الرمز، وخصوصاً فيما يتعلّق بالكلام عن بلوغ العقل الإنساني إدراك الألوهية.

والقسم الثاني: فيه قصّة حيّ بن يقظان نفسه. لقد تنقّل حي ابن يقظان في الجزيرة المهجورة بين سبعة أدوار (أو سبعة أسابيع كما سمّاها)، في كل أسبوع سبع سنوات، فهو إذن يوفي خمسين عاماً. وهو في أثناء ذلك يتمكّن من استمرار العيش والحياة ،ويتربّى، ويتعلّم، بغيرِ معلم ولا معين، سوى عقله هو، معرفة كل شيء من العالم المادّي المحيط به في مطلع حياته إلى معرفة الله تعالى حينما بلغ أشُدَّه (بلغ الاكتمال) .

وتتطوّر الأحداث - كما سأبيّن - فيلتقي مصادفةً برجل جاء من جزيرة أُخرى نشأ نشأة دينيّةً بحتة، ولكنْ ساءه جهل قومه، وما يتمسّكون به من الخرافات.. التقى هذا الرجل واسمه (أبسال) بـــ(حيّ). وهكذا تتواصل أحداث القصّة - كما سأفصّل - ويتعارف العابد الحقيقي (أبسال) والمفكر (حي) ويخلصان – أخيراً - إلى أنهما وصلا عَبْر طريقين مختلفين (الدّين - والعقل) إلى غاية واحدة[1].

لماذا ألّف ابنُ طفيل قصته ؟

يبدأ ابن طفيل القصّة بأنّ صديقاً سأله أن يبثّه ما أمكنه من أسرار الحكمة المشرقية (التي كان ذكرها ابن سينا) من الكشف عن حقائق الوجود، وما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق في طور الولاية .

ويظهر أنّ هذا السّائل، كما قال أكثر دارسي القصة[2] - ليس إلاّ شخصاً خياليّاً، تصوَّره ابن طفيل، ليضع كتابه في شكل رسالة مثل الكثيرين غيره من كُتّاب العربيّة الذين اختاروا هذا النوع من التأليف لبساطته وسهولة التعبير فيه، وقد أحبّ ابن طفيل أن يُحَدّث الناس عن الله رمزاً.

---

(١) ابن طفيل: عمر فروخ: ٤١.

(٢) مثلاً: حيّ بن يقظان – (مقدمة د. جميل صليبا، ود. كامل عياد) .

وضرب ابن طفيل مثلا بَيّن فيه الفرق بين الذي يُدرك (ما بعد الطبيعة) بثاقب فكره، وبين من يدرك ذلك بالكشف والمشاهدة فيقول[1]:

«تَخَيّلْ حالَ منْ خُلِقَ مكفوف البَصر إلا أنّه جَيّد الفطرة قويّ الحَدْس، ثابت الحفظ، مُسَدّدَ الخاطر، فنشأ مذ كان في بلدة من البُلدان، وما زال يتعرّف أَشخاص الناس بها وكثيراً من أنـــواع الحيوان والجمادات، وسكك المدينة (طُرقها) ومسالكها وديارها وأسواقها بما له من ضروب الإدراكات الأُخَر، حتّى صار يمشي في تلك المدينة بلا دليل ويعرف كل من يلقاه، ويسلّم عليه لأوّل وهلة (أول شيء أو: أول ما تراه). وكان يعرف الألوان وحده بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها.

ثم إنّه بعد أن حصل على هذه الرُّتبة (وّصل إليها) فُتح بَصَره، وحدثت له الرؤية البصرية، فمشى في تلك المدينة كلها وطاف بها، فلم يجد أمراً على خلاف ما كان يعتقده، ولا أنكر من أمرها شيئا. وصادف الألوان على نَحوٍ ثَبَّتَ في ذهنه الرسوم التي كانت رُسِمتْ لهُ بها. غير أنّه في ذلك كله حدث له أَمران عظيمان أحدهما تابعٌ للآخر، وهما زيادةُ الوضوح والانبلاج (الاتّضاح والاستنارة)، واللذّة العظيمة.

---

(١) حي بن يقظان (جامعة دمشق): ٨.

فحال النّاظرين الذين لم يَصِلُوا إلى طور الولاية هي حالة الأعمى الأولى.. وحال النظّار الذين وصلوا إلى طور الولاية... هي الحال الثانية .

وأهل النّظر عند ابن طفيل هم أهل النّظر الفلسفي... أمّا العامّة وغير الفلاسفة فابن طفيل لا يشير إليهم البتّة، وهم لا يدخلون في حسابه[١].



(١) ابن طفيل وقصة حي بن يقظان – د. عمر فروخ: ٤٣.

تولُّد حيّ بن يَقْظان

جَعل ابنُ طفيل مولد حيّ بن يقظان في جزيرة من جُزُر الهند عند خطّ الاستواء (الوقواق) لأن خط الاستواء أعدل بقاع الأرض، فلا تتفاوت فيه الحرارة بين الشتاء والصيف، والليل والنهار، ثم جعله يولد بصورة طبيعية: ذلك بأن طينةً في أرض تلك الجزيرة تخمّرت على مرّ السنين وامتزجت فيها العناصر الأربعة (الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة) امتزاج تكافؤ وتعادل حتى أصبحت مستعدّة لقبول الحياة[(١)]. حينئذ تعلَّقت بها الرّوح[(٢)] الّتي هي من أَمر الله، ودَبّت فيها الحياة. وما زالت هذه الحياة تدبّ في هذه الطينة المختمرة على ترتيب مخصوص حتى تَخلّق فيه جنينٌ ما زال ينمو ويكتمل حتى انشقت عنه الطينة بشراً سويّاً.

---

(١) تاريخ الفكر العربي – عمر فروخ: ٦٢٩:٦٣٠، وابن طفيل (له أيضاً).

(٢) الرّوح: كلمة تذكّر وتؤنّث .

ويجد ابن طفيل الترتيب المناسب لهذا الطّفل لكي تتوفر له أسباب الحياة والسلامة، والانتقال من حال إلى حال. لقد كان (حي) في حاجة إلى العناية، وصادف أن كانت في الجزيرة ظبية فقدت ولدها، فوجدت في هذا الصغير (المتروك) عوضاً فحضنته بدلاً من ولدها.

الأسابيع (الأدوار) السبعة:

وجعل ابنُ طفيل حَياة حيّ بن يقظان، وهو يُراقبها ويسجّل تطوراتها في سبعة (أَدوار) سمّاها: أسابيع (كلّ دور أُسبوع)، وكل أســبوع سبع سنوات. فتمَّت أدوار حياة في خمسين عاماً .

الأسبوع الأول: تربّى (حيّ) في رعاية الظبية الرّؤوم. وفي هذا الدّور تعلّم حي بن يقظان محاكاة أصوات الحيوان، وأَلِفَ عدداً منها وتعلّم ستر بدنه بأشياء من الطبيعة، مثل ورق الأشجار وريش الطيور، واستعمال العصا في الدفاع عن نفسه.

الأُسبوعان الثاني والثالث: في مطلع الأُسبوع الثّاني ماتت الظبية، فحاول حَيّ أن يعرف سبب موتها، فشقَّ صدرها، ووصَلَ إلى القلب، واستنتج أن الرّوح تكون في القلب، فإذا غادَرَتْهُ بَرَد الجسم وهَدأ: (مات) .

في هذا الدّور المزدوج تعلّم حيّ بن يقظان حفظ النّار، وكان قد حصل على (أول قبس من شجيرات وقعت عليها صاعقة فاشتعلت). وتعلم فوائد النار ومنافعها في الإنارة، والدفء، والطبخ، والإيناس، وهرب الحيوانات الضارية (المفترسة) منها.

وربط حي بن يقظان، بين حرارة النّار وبين الحياة، وأنّ هذه الحياة موجودة في أجناس الحيوان جميعاً، وإن اختلفت في أشكالها، وأنّ مركزها في القلب، وأنّها هي التي تجعل الأُذن تسمع، والعين تبصر، والأنف يشمّ.... الخ .

وتعلّم في هذه المرحلة استعمال الأَدوات المُختلفة، وبناء الأكواخ، والاكتساء بجلود الحيوانات، وتألّف بعض الحيونات (جَعلها تألفُ، داجنةً).

الأسبوع الرابع: في هذا الدّور أدرك حيّ بن يقظان العالم الطبيعي من حوله، وخصائصه، وأدرك أنّ الجمادات ذوات امتداد، وثقل،وحركة مقتسرة (بفعل فاعل)، وأنّ الحيوان يزيد على الجماد بالحركة الإراديّة، وعرف أن للنّباتات نوعاً من الحركة. وعَرف الصُّورة والمادّة، وأنهما متلازمان في عالمنا، وأن بعض الأجسام يختلف عن بعض بالصورة لا بالمادّة.

ثم عرف أن تبدّل الصّور على المادّة لا بد له من مُحْدِث واحد خارج عن الأجسام التي يفعل فيها هو: الله.

الأسبوع الخامس: عرف (حيّ) في هذه الرحلة من تطوّر حياته، وتوسع معارفه ومعلوماته ومكتشافاته أن السّماء والكواكب أجسام، وأنّ السّـماء (بمعنى مجموع العالم) متناهية لأنها جسم (لها بداية ولها نهاية)، وأنها كرويّة، وأن العالم بجملته محدث (ليس قديماً. فالقديم هو الله وحده).

ولما كانت حركة الأجرام السماوية لا نهاية لها ولا انقطاع، فلا يمكن أن تكون منبعثة فيها من نفسها، لأنّ كل حركة منبعثة من جسم متناهية، فلابد لها من مُحرّك ليس في جسم .

فَمُحْدِث (خالق) العالم ومُحرّك الكواكب هو الله المُنَزّه عن صفات الأجسام، وهو علّة العالم السابقة على العالم (قبله) بالذات لا بالزمان. والله: قادر، مريد، مُختار، حكيم، بريء من جميع نواحي النقص.

الأُسبوعان السادس والسابع: في هذا الدّور المزدوج بلغ حيّ بن يقظان أَشُدّه (بلغ الأربعين من عمره)، وقصَر جهده على معرفة الله. ولكنْ عَجز عن أن يعرفه بحواسّه وعقله كما عَرف الموجودات المادية والمتعلقة بالمادة (كالأسباب والعلل والصورة والرّوح) .

أحداث القصّة

(١)

كان في جزيرة مجاورة لجزيرة حيّ بن يقظان رجلان أحدهما اسمه أبسال والثّاني اسمه سلامان. وكان قد وصل إلى هذه الجزيرة ملّة (دين) من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدّمين.

- وقد اجتهد شُرّاح القصة بأنَّ هذه الملّة هي الإسلام.

- وقَبِلَ الرجلان أبسال وسلامان هذا الدّين واعتنقاه معاً ووصف أبسال بأنه أشد غوصاً في العاطفة، وعثوراً على المعاني الرّوحانية، بينا كان سلامان أكثر احتفاظاً بالظّاهر وأشدّ بعداً عن التأويل، وعن الاستغراق في التأمل.. ففضّل أبسال العُزلة ومال سلامان إلى ملازمة الجماعة، فملازمتها: «ممّا يدرأ (يمنعُ) الوسواس ويزيل الظّنون المعترضة، ويُعيذ من هَمزات الشّياطين، وكان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما»[١].

---

(١) حي بن يقظان - فاروق سعد ٢١٨ - ٢١٩.

(٢)

انتقل أبسال إلى الجزيرة التي فيها حيّ بن يقظان لعلمه أنها هادئة يستطيع فيها أن يمارس عبادته وتأمّلاته وأن ينعم بالسّكينة. وكان في خيرات الجزيرة ما جعله يستطيع مواصلة الحياة دون مشقة .

في هذا الوقت كان (حي) «شديد الاستغراق في مقاماته الكريمة ولا يغادر مغارته إلاّ مرة واحدة في الأسبوع، وكان يسره خلاء الجزيرة وهدوؤها».

مرة التقى نظر أبسال وحي في لحظة. كانت المفاجأة لهما معاً قويّة ولفتت صلاة أبسال وأدعيته وأذكاره اهتمامَ حَي وإن لم يفهم ممّا يقال شيئاً ولمّا رأى حَي ما رأى من خُشوع أبسال: «لم يشك في أنّه من الذّوات العارفة بالحق، فَتَشوَّقَ إليه، وأراد أنْ يرى ما عنده، وما الذي أوجب بكاءه وتضرّعه»؟!.

لاحَق حيّ (أبسال) فهرب منه. ثم استسلم لملاحقته، فقد كان حَيّ أقوى بَدناً منه. واطمأنّ أسال على نظرات حيٍّ وابتسامته، واقتربَ كلّ واحد فيهما من صاحبه !

(٣)

ولمّا رأى أبسال أنّ «صاحبه» لا يتكلّم أَمِنَ على دينه ورجَا أن يعلّمه الكلام والعلم والدين، فيكون له بذلك أعظم أجر وقُربْى عند الله، ونجَحَ أسال في مهمّته بعد جهد ومعاناة وقبول ٍ من (حيّ) أيضاً.

ولمّا أتقن (حيّ) الكلام (بتعليمٍ من أبسال وتدريب) أخْبَر أبسال عن حقيقته وحاله وشأنه كلّه. وأخبر كل واحدٍ منهما صاحبه بما وصل إليه من أمر الله والعالم. ولقد عجبا كلاهما من أنّ الغاية التي وصلا إليها عن طريق :

- الفهم الصحيح للدين .
- عَن طريق التفكير .
- كانت غايةً واحدة .

ولما علم (حي) حال سكان المدينة الأُخرى، وما هم عليه من الجَهْلِ والخُرافات أحبَّ أن يذهب إليها، ويحدّثَ أهلها بما عرفه هو وأبسال من الحق. فقال له أسال: إنّ ذلك غير ممكن لأن أكثر النّاس بمنزلة الحيوان غير النّاطق وأمّا حالهما هما فحال أصحاب الفطرة الفائقة .

لم يستوعب (حيّ) كلام صاحبه فإنه لم يعاشر البشر من قبل، فانطلقا إلى تلك الجزيرة، واجتمعا بنخبةِ أهلها من أصدقاء أسال وسلامان، ومن المعترف لهم في الجزيرة بالتقدّم والفهم... ولم ينجح (حيّ) في محاولته، ولم يستجب الناس لهما، وأسِفا لأن تكون تلك حال (الخاصّة) فما بالك بحال (العامّة) ؟

ذهب أبسال و(حي)، بعد أن وصلا مع الناس إلى طريقٍ مسدود، إلى سلامان واعتذرا إليه.

(٤)

عاد الصّديقان (حي) وأبسال إلى «جزيرة حي» بعد أن أَوْصَيا أهل الجزيرة الأخرى بأن يستمرّوا على ذلك النّوع من العبادة الذي عرفوه من آبائهم (وعَرفا من خلال هذه التجربة أن العامّة الذين لاقَوْهم لا يقدرون على إدراك الحقيقة، ولا على التفكير لأنفسهم .

في الجزيرة، وقد عادا إليها، استمر أبسال و (حيّ) على ما كانا عليه من العبادة وبقيا على حالهما حتّى أتاهما اليقين .

الفن القصصي في (حيّ بن يقظان)

قلنا إنّ اسم (حَيّ بن يقظان) قد سَبق في أعمال لغير ابن طفيل وإن اسمي أبسال وسلامان تردّدا أيضاً، وإن فكرة رعاية بعض الحيوانات لأطفال مَنْسيّين وردتْ في الأُسطورة أو في بعض الوقائع (ولكنّ الذي نقرؤه في قصّة ابن طفيل شيءٌ جديدٌ مختلف عن كل ما سبق):

(١) **موضوع القصة** كما سردها علينا ابنُ طفيل[١] موضوع يحمل سماتِ صاحبه، ولا ينتمي إلى غيره، وقد جمع ابن طفيل أطراف قصته بأشخاصها وأحداثها، ورتّب ذلك ترتيباً خاصّاً، وأدخل في أثناء السّرد والحوار رؤى وأفكاراً وملامح فكريّة وفلسفيّة هي وليدةُ آرائه ومواقفه وفلسفته.

(٢) ويكاد يجمع الدّارسون على أن هذه القصّة **تحمل في طيّاتها عناصر القصة النّاضجة فنياً**، والتي هي على مستوىً أدبيٍّ رفيع.

---

(١) حي بن يقظان، فاروق سعد ومراجعه.

(٣) في قصة (حي بن يقظان) **نجد شخصيّة (حيّ) هي العنصر السّائد**، ولئن ظهرت شخصية أبسال في مرحلةٍ من مراحل القصّة لقد عادت إلى شخصيّةِ (حيّ) مكانتها ،وسيطرتها على الأَحداث.

(٤) وعناية ابن طفيل بــ(حيّ) في قصّته وتركيزِه على سيادة الشّخصية **لا تعني إهماله العناية بالأحداث**، فإنها تطوّرت على امتداد القصّة تطوراً يؤدّي إلى الخاتمة التي وصل المؤلّف إليها، ومن ذُرا الأحداث في القصّة:

- **مصير (حيّ) الذي كان وليداً** بعد وضعه في الصّندوق وإلقائه في البحر.
- **مصير (حيّ) بعد أن عثرت عليه الظبية .**
- **تحرّي (حيّ) عن سبب (أو أسباب) وفاة الظبية .**
- **نتائج تأمّلات (حي)** بعد تلك التجربة.
- **لقاء (حي) بأسال .**
- **مصير (حي) في جزيرة أبسال..**

اتّسم سرد الأحداث في القصة بالتنسيق في الوصف، والتّشويق في المعالجة، والإثارة في العبارة .

ونضربُ مثلاً من القصّة بعبارات ابن طفيل، وهو من القسم الذي وقف فيه (حي) أمام جسد الظبية بعد وفاتها، قال[١]:

«ومازال الهزال والضّعف يستولي عليها، ويتوالى إلى أن أدركها الموتُ فسكنت حركاتُها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها. فلمّا رآها الصّبي على تلك الحال جَزِعَ جزعاً شديداً، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها. وكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيح بأشد ما يقدر عليه، فلا يرى لها عند ذلك حركةً ولا تغييراً، فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشيء منها آفة ،فكان يطمع (يبحث ويأمل) أن يَعْثُرُ على موضع الآفة فيزيلها عنها، فترجع إلى ما كانت عليه، فلم يتأتَّ له شيء من ذلك، ولا استطاعه !

وكان الذي أرشده إلى ذلك أنّه إذا أغمض عينيه أو حجَبها بشي لا يُبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق، وكذلك كان يرى أنّه إذا أدخل أصبعيه في أذنيه وسدّهما لا يسمعُ شيئاً حتى يزول ذلك العارض، وإذا أمسك أنفه بيدهِ لا يشمّ شيئاً من الرّوائح حتى يفتحَ أنفه، فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ماله من الإدراكات

(١) قصة حي بن يقظان ص: ١٣٣–١٣٤ (ط دار الآفاق الجديدة).

والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها، فإذا أزيلت العوائق عادت الأفعال .

فلمّا نظر إلى جميع أَعضائها الظّاهرة ولم يَرَ فيها آفة (علة) ظاهرة، وكان يرى مع ذلك أنَّ العطلة قد شملتها (تعطلت حركة الحياة المألوفة فيها سابقا)، ولم يختصّ بها عضوٌ دون عضو، وقَع في خاطره أنّ الآفة التي نزلتْ بها إنّما هي عضوٌ غائبٌ عن العيان، مستكنّ (مستقرّ) في باطن الجَسد، وأن ذلك العضو لا يُغني عنه في فِعله شي (لا ينوب) عن هذه الأعضاء الظاهرة فلمّا نزلت به الآفة عمّت المَضَرّة وشملت العطلة .

وطمع (حيّ) لو أنّه عثر على ذلك العضو، وأزال عنه ما نزل به (ما أصابه) لاستقامت أحوالُه، وفاض على سائرِ البدن نَفْعُه، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه.

ودارت في ذهن حي بن يقظان أفكارٌ وخواطر خرج منها بنتيجةٍ هي ضرورة البحث في داخل البَدن، وهكذا: «عزم حي على شَقّ صدرها وتفتيش ما فيه فاتّخذ من كُسور الأحجار الصَّلْدة (القاسية) وشُقوق القَصب اليابسة أشباهَ (ما يُشبه) السّكاكين...» الخ .

(٥) اعتمدت المعالجة القصصيّة في (حي بن يقظان) على السّرد المباشر إذ يشغل تيّار الوعي (أو المونولوج الداخلي) حيّزاً كبيراً من المعالجة، فالقصة تعرض سيرة (حيّ) وما يتصل بها من وقائع وأحداث...

وشخصية (حيّ) تتكشف (تتّضح) للقارئ من خلال القصّة، وتتطور بتطوّر أحداثها، وتفاعله المستمرّ معها.



أصداء قصة حي بن يقظان

في عبارة موجزة يقول جورج سارتون: (sarton)[١] أحد أعظم مؤرخي العلم في عصره إنّ ابن طفيل، بفضل هذه القصة «أحد أعظم الفلاسفة في العصور الوسطى».

لقد تركت هذه القصة أثراً كبيراً في الفكْر الإنساني. وعَرفها الناس في الأندلس، والمغرب، وانتقلت إلى المشرق الإسلامي، وإلى العالم الغربيّ وتُرجمت إلى العبريّة في وقت مبكر (كان اليهود يعيشون مع العرب في الأندلس وكان لهم أثر في التّرجمة في أكثر من مدينة أندلسية، وخاصة في طليطلة).

واطّلع الأوربيّون على (حيّ بن يقظان) بلغتها العربيّة، فقد ظلّت العربية لغةَ الطبّ والفلسفة وعلم النّبات والصّيدلة زماناً

---

(١) جورج سارتون (١٨٨٤ – ١٩٥٦) عالم أمريكي يعد أحد مؤرخي العلم.. ارتحل إلى سورية ومصر وتونس والجزائر والمغرب ليدرس العربية ويطلع على مآثر العرب في العلم، كما تتجلى في المخطوطات الأصلية. أهم آثاره: مقدمة لدراسة تاريخ العلم (في ثلاثة مجلدات) .

محذوف:

طويلاً لكلّ راغب في (العُصور الوسطى) في الاستزادة من هذه العلوم. ثم ترجمت القصة، في وقت متأخر نسبيّاً (بحسب المعلومات المتوفرة) وانتقلت إلى لغات العالم الذّائعة.

وكان أثر: (حي بن يقظان) في التفكير الأوربي من جانبين:

الأول: من قصة حي بن يقظان باعتبارها قصة ذات اتجاه فلسفي معين .

الثاني: من مفردات المعلومات والآراء التي ضَمّنها ابن طفيل قصته[1].

١) **موسى بن ميمون القرطبي**: أحد تلامذة الفلسفة الإسلاميّة. و«أكبر فلاسفة اليهود» المتوفي سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) بعد ابن طفيل بعشرين عاماً كان تأثّره بالفلسفة العربية عامّة، وبابن طفيل خاصّة عظيماً جداً[2].

وقد أشار د. ولفنسون في كتابه: (موسى بن ميمون حياته ومصنّفاته) إلى ابن طفيل وعدد من الفلاسفة والمفكرين العرب والمسلمين من المشارقة والأندلسيين، قال في هذا السّياق، وهو يعرض كتاب بن ميمون: (دلالة الحائرين):

---

(١) انظر: ابن طفيل (د. عمر فروخ): ٩١.
(٢) ابن طفيل - د. عمر فروخ: ٩٣ .

محذوف:

«... ورد في هذا الكتاب بحث مفصّل في منزلة المعتزلة والأشاعرة والمتكلّمين، ممّا يدل على أنه درس المذاهب الإسلامية دراسة وافية، وعلى العموم كان له إلمام بالفلسفة العربية (يريد معرفةً واسعةً) يندر أن تتوفّر في شخصٍ آخر من أحبار اليهود في العصور الوسطى»[(١)].

وقف د. فروخ عند مقاطع من (دلالة الحائرين)، ووصل بينها وبين قصّة حي بن يقظان، ونقف عند نقطة واحدة فقد خاطب موسى بن ميمون تلميذه يوسف بن عقنين، وأخبره أنه لم يقصد بكتابه «دلالة الحائرين» الجمهورَ أو المبتدئين بالنّظر... ولم يقصد به إفهام جُملته للجمهور، ولا لمن نظر في علوم الفلسفة، وعلم معانيها، وجذبه العقلُ الإنساني، وقاده ليحلّ محلّه. وأراد كذلك أن يبيّن مشكلة الشَّريعة ويُظهر حقائق بواطنها الّتي هي أعلى من إفهام الجمهور.

وقال ولفنسون في عرض كتاب موسى بن ميمون: إن هدفه هو أن يلقي أشعّةً من أنوار الفلسفة والنطق والعقل على الإيمان والشعور.. وهو يقصد التّوفيق بين الدّين والفلسفة[(٢)].

---

(١) موسى بن ميمون – إ. ولفنسون – القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ص :٦٢ – ٦٣.
(٢) المرجع السابق نفسه: ٦٣.

ووقف د. عمر فروخ في تتبّع أثر (حي بن يقظان) عند عدد من المفكّرين الغربيّين، فيهم ألبرتوس ماغنوس (١٢٠٦ – ١٢٨٠م) الذي وُلد بعد وفاةِ ابن طفيل بعشرين عاماً، وكان العنصر العربي بارزاً في فلسفته إلى حدٍّ كبير .. لقد جهد في أن يبرهن على أنّ العقل والوحي لا يتطابقان، ولا هما يتعارضان، ولكنهما يتّفقان ..

وفيهم **توما الإكويني** (١٢٢٥ – ١٢٧٤) : وهو من تلاميذ ماغنوس فيلسوف ولاهوتي .

وفيهم **بلتسار غراسيان**: (توفي ١٦٥٨ م) وهو كاتب إسباني وراهب يسوعي كتب قصّة سماها الكريتكون أو أندرنيو، خلع فيها على بطلِ قصّته هذه شخصيّة حَيِّ بن يقظان الفلسفيّة

وفيهم **بندكت فان سبينوزا** (توفي ١٦٨٨ م) : وهو فيلسوف هُولندي يهوديّ. وقد أرْجَع د. فروخ اقترابَهُ من الفلسفة اليهودية الإسلاميّة (المتأثرة الآخذة من الفكر الإسلامي) إلى أثر ابن طفيل فيه بالدرجة الأُولى .

وفيهم **دانيال دوفو** (١٦٦٠ – ١٧٣١) مؤلّف قصة: روبنسن كروزو، فقد ظهر أثر ابن طفيل (رسالة حي بن يقظان) ظُهوراً بارزاً في قصة روبنسن كروزو».

وفي دراسة مستقلّة عن القصّتين يقول حسن محمود عباس[١] «كلتاهما تروي قصّة العُزلة، وتجربة العيش المُنفرد بعيداً عن حياة المجتمع الإنساني. وقد اتخذت الجزيرة المعزولة مسرحاً للأحداث فيهما معاً، وكلتاهما قصّةٌ من قصص الشّخصيات.. الخ».

وفيهم **جان جاك روسو** (١٧١٢ – ١٧٨٧) : عالم الاجتماع أصدر سنة ١٧٢٦ قصّة فلسفيّة أسماها (إميل) أو (في التعليم) بسَط فيها رأيه في طريقة التعليم، وأعلن أن الإنسان خَيّر في طبيعته، ودعا إلى الرجوع إلى الطبيعة لتنشئة البشر تنشئة صحيحة بعيدة عن القيود الاجتماعية المثبّطة، كما فعل ابنُ طفيل قبله بستّة قرون[٢].

وفيهم **إدغار رايس بوروز** (١٨٧٥–١٩٥٠): كاتب أمريكي، وفي ترجمته أنه «ابتكر شخصيّة **طرزان** التي تمثّل ابن نبيل انكليزي خُلّف في أدغال إفريقية وهو طفل، فربّتْهُ القِردَة .. وتعدّ روايته (طرزان القردة) إحدى أروع رواياته الطرزانية[٣].

(١) حي بن يقظان وروبنسن كروزو - حسن محمود عباس: ٢٤٩

(٢) ابن طفيل - د. عمر فروخ ٩٧. وانظر: الفكر التربوي عند ابن طفيل د. عبد الأمير شمس الدين: ٥٣ وما بعدها .

(٣) موسوعة المورد ٢:١٣٦.

محذوف: :

وتأثر (بوروز) كما يقول الدّارسون، بقصّة حيّ بن يقظان وهو يصوغُ شخصيّة طَرزان وتصرّفاته[1].

وهناك نظائر لحي بن يقظان، على نَمط طَرزان[2].

---

(١) حي بن يقظان - فاروق سعد : ٤٨.

(٢) المرجع السابق: ٥٠.

(المعرفة) عند ابن طفيل تكونُ من طريقتين:

١- **طريق الحواسّ الخمس،** بالاختبار، وتكرار التجربة، والمقارنة، فيما يتعلّق بالأجسام.

٢- **عن طريق الذات** (النفس) بالحدس غير المتصل بالحواس (في ما يتعلق بالمدارك، والموجودات البريئة من المادة) أي: بالاستدلال على الصانع من مصنوعاته، وعلى الأسباب من الصور الحادثة، كما نستنتج وجود النجار من وجود الخزانة والطاولة .

و(الإشراق) عند ابن طفيل من الحَدْس، ولكنه خاص بذوي الفطرة الفائقة.

والمعرفةُ مكتسبةٌ لا مخلوقةٌ مع الإنسان فـ (حي بن يقظان) يرتقي في المعرفة عن طريق الحواس والتجربة إلى المعرفة العقلية القائمة على الاستنتاج من التّجربة في عالم الكون والفساد

إلى التأمّل في السّماء والعالم بأسره، خروجاً من الطّبيعة إلى ما بعد الطّبيعة...

وشملت قصّة حيّ بن يقظان التي هي في الواقع سيرةٌ للمعرفةِ الإنسانية ميدان هذه المعرفة أي: الطبيعة، وما وراء الطبيعة.

وهكذا حوَتْ القصّةُ جوانبَ: التّربية، والأخلاق، والرّياضيات، والجُغرافية، وعلم نشوء الكون، والفلك، والعلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وعلم حياة (الإنسان والحيوان والنبات) وتشريح، وطب، إلى ما وراء الطبيعة من علم الوجود، والإلهيات، والاجتماع، وما وراء الطبيعة .

التّربية :

ترك ابن طفيل تلميذه (حيّ) في أحضان الطبيعة، وتركها وحدها تعملُ على تنشئته وتربيته: (الطبيعة بمعناها الواسع ومجالاتها المتعدّدة). تعلّم حيّ من الحيوان السّعي وراء الرّزق، وحفظ حياته وجسده، واتّخاذ المأوى والملبس والمسكن والسّلاح والأدوات، كما تعلّم أنواع الأصوات ليستعينَ بها حسب مقتضى الحاجة، كما تعلّم منها دَفْن «أمه» الظبية، وردم التّراب على

جَسدها، ومن الحيوان استوحي أهميّة أطرافه: يديه ورجليه. **لقد كان النّبات والجَماد والكون بأسره المدْرسة التي لم يغادرها حيّ يوماً إلاّ حين أراد أن يُصلح من شأن مُجتمع الجزيرة المجاورة، ولم يكن ذلك المجتمع** إلاّ ليزيده نُفورا منه وهروباً إلى الطّبيعة**!**

«وبعد أن يلتقي حي بن يقظان بأبسال يتعلّم منه اللّغة بالإشارة والنّطق بالاسم، والدّعوة إلى النّطق والإشارة بوسيلة المُحاكاة، فشرع أسال في تعليم حي بن يقظان الكلام أولاً بأول: كان يشير له إلى أعيان الموجُودات، وينطق بأسمائها ويكرّر ذلك عليه، ويحملُه على النّطق، فنطق بها مقترنةً بالإشارة، حتّى علّمه الأسماء كلّها، ودرّجه قليلاً قليلاً حتى تكلَّمَ في أقصر مدّة..» [١].

(انظر ما سبق: أصداء قصّة حي بن يقظان، وتأثر جان جاك روسّو بهذه القصة في «تربيته»).

الأخـلاق :

يتجلّى عُنصر الأخلاق في قصّة حيّ بن يقظان في ملامح متعددة:

- من ذلك **العرفان بالجميل من (حي) تجاه الظبية** التي أنقذت حياته.

---

(١) حي بن يقظان: فاروق سعد: ١٦٢.

- والأخلاق الحميدة عنده ألاّ يعترض الإنسان الطّبيعة في سيرها، فإذا قطف الإنسان ثمرةً قبل أوان نضجها فإنّ عمله هذا يُعَدّ بعيداً عن الأخلاق، لأنّ عمله هذا يمنعُ البزرة (التي لم يتم نضجها) من أن تحقق غايتها في الوجود وذلك بإخراج نبتةٍ أو شجرةٍ من جنسها، ولا **يجوزعنده التّغذي بالنّباتات النادرة** واستئصالها لأن ذلك يدعو إلى انقراضها، وتقتضي الأخلاق الكريمة على الإنسان أن **يزيل العوائق التي تعترض النّبات** والحيوان في سبيل تطوره وتحقيق غايته من الوجود. ويدخل في ذلك **(آداب العيش)** فإن حي بن يقظان ألزم نفسه دوام الطّهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه، والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات.. وتعهّد نفسه بالتّنظيف والتّطييب..

وبعد أن احتكّ (حيّ) في جزيرة أبسال (حين رافَقه إليها) وفهم أحوال النّاس (وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير النّاطق) علم «أنَّ الحكمة كلّها والهداية والتّوفيق في ما نطقت به الرّسل ووردت به الشّريعة، لا يمكن غير ذلك، ولا يحتمل المزيد عليه..» [1].

---

(١) من قصة حي بن يقظان: ٢٣٢.

في طب ابن طفيل الأندلسي

كتب الدكتور أحمد شوكة الشطّي، وهو أستاذ في جامعة دمشق وطبيب مشهور بحثاً بعنوان نظرات في طبّ ابن طفيل الأندلسي مستوحاة من قصتة حي بن يقظان واستخرج الدكتور الشطي خمسة عشر وجهاً لها صلة ٌبالطّب وما يتعلّق به من القصّة:

١- قوله بإمكان نشوء الحياة بالتولّد الذّاتي، والتّطور في بدء الخلق، فيكون ابن طفيل بهذا القول من رواد العلماء القائلين بنظرية النّشوء والارتقاء قبل دارون بمئات السنين .

٢- قوله باستمرار الحياة وخلودها بالبزر، والتوالد، والتّناسُل.

٣- سعيه إلى البحث في أسرار التخلّق في الجنين .

٤- رأيه في تغذية الأطفال .

٥- سعة اطّلاعه في تدرّج النّماء الجسماني والنّفساني في الطّفل وتولّد الإدراك والتمييز فيه .

٦- إرشاده وتوجيهه إلى البحث في التّشريح والفيسيولوجيّة، والباتالوجية.

٧- اعتباره توزع الدم واستمرار أكسدته (تنقيته وتزويده بالأوكسجين) عاملين أساسيين في بقاء الحياة في الحيوان .

٨- توجيهه إلى البحث في التّشريح المقارن، والفيسلوجية المقارنة إلى الكشف عن أسباب تعطل الحياة[1].

٩- قوله بإحكام ارتباط أعضاء الجسم بعضها ببعضها الآخر.

١٠- عمق بحثه عن الحياة في الحيوان والنبات وخصائصها في كل منهما .

١١- رأيه فيما يميز الحيوان عن النبات .

١٢- روعة تعريفه للتّغذي، وبلاغة تعبيره في الإفصاح عن التمثل - المشابهة - كما يعبّر عنها .

١٣- إبداعه في شرح النّموّ وتقسيم مظاهر الحياة إلى:

: نفس نباتيّة.

: حياة نباتيّة مشتركة بين الإنسان والحيوان.

---

(١) في تاريخ الفكر العربي ٦٣٦ «في قصة حي بن يقظان دلائل كثيرة على أن ابن طفيل اشتغل بالتشريح كثيراً وكان فيه بارعاً».

: نفس حيوانيّة .

: حياة حيوانيّة يختصّ بها الحيوان.

١٤- حُسن تصنيفه الأغذية بالنسبة لأثرها في تخليد الحياة .

١٥- روعة مذهبه في الغذاء الدّاعي إلى محاولة احترام كوامن تخليد الحَياة أنّى وُجِدت ،وما أمكن ذلك .

طبيعة المادّة: الهيولى والصُّورة

حين بلغ حي بن يقظان الحادية والعشرين عرضت له مشكلة ثانية (بعد المُشكلة الأولى التي حدثت له عند موت الظبية :ما الحياة ؟ وما الموت ؟) والمشكلة الجديدة هي: **ما طبيعة المادّة؟**

- نظر حي إلى نفسه، فحكم أنه واحد بروحه الحيواني الواحد، كثيرٌ بكثرة أعضائه وتباين أفعالها. وأن اختلاف الأعضاء ناتجٌ عن اختلاف ما يصل إليها من روحه الحيوانيّ. ونظر إلى أنواع الحيوان فرأى لها أفعالا ًمُتَعدّدة وروحاً واحداً، وأنّ هذا الرّوح كماءٍ واحدٍ فرق على أوان كثيرة: بعضه أبرد من بعض.

- ونظر إلى النبات فرآه يشارك الحيوان الغذاء، والنمو، ويظل دونَهُ حسّاً وحركةً، وأنّ النبات والحيوان شيءٌ واحد، هو

في أحدهما أتمّ وأكمل، كأنّه ماءٌ واحد، بعضهُ جامِدٌ وبعضُه سيّال.

- ونظر إلى الجماد فرأى الحارّ يصيرُ بارداً، والبارد حارّاً، ورأى الماء يتحوّل بخاراً، والبخر ماءً. فحَكم أن أجسام الجماد شيءٌ واحد «وإن لحقتها الكثرةُ بوجهٍ مّا، فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات».

- ثم نظر إلى **ما اتّحد به الجماد والنبات والحيوان** (صفات مُشتركة) فرأى أنّه جسم، وأن الأجسام كلّها واحدة.

والآن: بِمَ (بأيّ شيءٍ) تنوّعت الأجسام فاختلف الحيوان عن النّبات أو عن الجماد ؟

إن كل جسم مركب من شيئين: من هيولى[١] واحدة مُشتركة بين كل الأجسام، ومن صورة، أو أكثر، تميّز جسماً عن جسم. فالحيوان مركّب من هيولى ونفس حيوانية، والنبات مركب من هيولى ونفس نباتيّة، والجماد من هيولى وصورة يسمّيها النظّار

(١) الهيولى كلمة معربة، وهي عند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل في شتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية (معجم الفلسفة) .

(طبيعة) لا يفهم الجسم إلا مركبا من هذين المعنيين، ولا يستغني أحدها عن الآخر .

الموجود والمُوجد

بعد تحديد طبيعة المادة عرض لمسألةِ حُدوث الصّور، وهذا الحُدوث ثابت من الفساد (أي من التغيّر). وضرب مثلاً من الماء فهو بصورته باردٌ يطلب النّزول فإذا لاقى حرارة الشمس زال عنه البرد. ثمّ تَبخّر وطلب الصعود فطبيعة الماء المتبخّر (أي صورته) قد تبدّلت. ولمّا كان لكل حادث ٍ مُحدِث فلابدّ للصّورة الحادثة من فاعل.

فالأجسام الأرضيّةُ والكواكبُ السّماوية أجرامٌ، والسّماء كلّها أجسام والسّماء متناهية (لها أوّل وآخر) كرويّة الشّكل، وإن الأرض والسّماء كل واحد متّصل، أشبه شيءٍ بشخص ٍمن الأشخاص محتاج إلى فاعل.

- وهذه المسألة بَحثها حي بن يقظان وقد بلغ الثامنة والعشرين.

- وناقشت القصة هذه المسألة: العالمُ حادثٌ أم قديم ؟ أورد حيّ دلائل على الرأيين، ولكنّه قطع بأنّ لهذا العالم موجداً هو الله تعالى.

وننقل هنا قول د. عبد الحليم محمود من كبار العُلماء المعاصرين في الفلسفة الإسلاميّة، والتصوّف، فقد قال:

«إن المشكلة الأساسيّة في نظر ابن طُفيل ليست اعتقاد حدوث العالم أو اعتقاد قِدَمه، وإنّما هي فيما ينشأ عن كلّ من الاثنين. وهو يَرى أنّه: سواء اعتقدنا بقدم العالم أو بحدوثه، فإن النّاتج عن ذلك واحد. وهو أنّ هذا العالم لابدّ له من مُوجد، ومن مُحَرِّك»[١].

الرياضيات والفلك

ابن طفيل مهندس وعالم فلكيّ، وقد بنى آراءه في الفلك على الهندسة كما عَبّر د. عمر فروخ، وهو يرى أن كل جسم مُتناهٍ، والأجرام (جمع جِرم: جسم) السّماوية متناهية، والسّماء كلها (العالم كله) متناهية،

- وشكْلُ العالم كروي،

- والشمس كروية، والأرض كذلك كرويّة، والشّمس أكبر من الأرض بكثير.

---

(١) فلسفة ابن طفيل ورسالة حي بن يقظان، ص ٤٠.

- واعتقد ابن طفيل أنّ للنّجوم نُفوساً، وأنها تعرفُ الله، وأنّ العالم يُشبه إنساناً كبيراً، وأنّ ما فيه من ضُروب الأفلاك المتّصل بعضُها ببعضٍ هو بمنزلة أعضاء الحيوان.

الطبيعيّات :

- لاحظ ابن طفيل انكسارَ النُّور (عند مروره في الهواء).

- وقال بالنشوء المُرتجل وتطوّر الأحياء. وجنس الحيوان وجنس النبات مُتّفقان في التَّغذّي والنّمو، والحيوان يزيد على النبات بفضل الحسّ والإدراك؛

- وقال إنّ نشأة الإنسان تخضع في تطوّرها لعوامل طبيعيّة من البيئة ؛

- وفضّل النّشأة الفِطرية الحُرّة (كالّتي نشأ عليها حي بن يقظان) على التّربية الاجتماعيّة المُصطنعة،

- واعتقد أن القلب أعظم ما في الجسد، وأنّه مسكن الرّوح .

- وهناك ملاحظات طبية أو متعلقة بها خصصنا لها فقرة مستقلة.

- «لقد كان اهتمام ابن طفيل بالعالم الطّبيعي عظيماً جداً، ولكنّه قصد من تأليف (حي بن يقظان) أن يبْحث عن عالم ما وراء الطبيعة في الدّرجة الأولى» .

نصوص شعرية من تراث ابن طفيل

كانت (قفصة) وهي أفريقية (تونس اليوم) قد دخلت في حدود دولة الموحّدين، وهي تقع جنوب مدينة القيروان. وكانت بعد ضعف دولة بني باديس الصنهاجيين منزل إمارة محلية في ظل بني الرّند، استقل عميدهم عبد الله بن محمد بن الرند بقفصة ومدّ سلطانه إلى قسنطينة (وهي الآن في القطر الجزائري) وجاءه ابنه المعتز فحفيده يحيى بن تميم بـــن المعتز. وصارت قفصة وتلك المناطق تحت سلطان الموحّدين منذ سنة ٥٥٤ هـــ وصار لها والٍ موحّدي .

وجرت أحداث في المدينة بسبب جَور العامل الموحّدي فانتفضت وخلعت الطّاعة في تفصيلات طويلة، عزم بعدها الخليفة أبو يعقوب على إخماد الفتنة، وإعادة الأمور إلى هدوئها، وسلامتها. وكان خروجه من مراكش سنة ٥٧٥ (١١٨٠ م) . وتمت استعادة (قفصة)، وهرب الواثب فيها: علي بن الرند، سنة ٥٧٦ .

واغتنم الخليفةُ الفرصة ليجدد مساعيه في استمالة العرب المنتشرين من تونس إلى مصر ليدخلوا في حركة الجهاد بالأندلس. ووجد استعداداً عالياً من القبائل لهذه المهمّة الشّريفة.

ومن تونس حيث استقر الخليفة الموحّد مدّة ًبعد ضبط أمور قفصة بعث رسالة بمضمون ما جرى إلى أنحاء الدّولة، ومعها قصيدةٌ أنشأها مُستشاره أبو بكر بن طفيل الذي كان معه في تلك الحملة. ومعلومٌ أنّه كان طبيبه أيضاً ورسوله إلى العلماء والأدباء والفقهاء[1]. وفي النّص، من أصل الكتاب كلمات ٍتحتها نظر (تحتاج إلى مراجعة).

- ومن هذه القصيدة[2]:

[من بحر الطويل]

لمّا انْقَضى[3] الفَتْحُ الذي كان يُرْتَجــى

وأصْــبَح حِــزْبُ الله أَغلــبَ غالــبِ

---

(١) انظر تفصيلات لهذه الحملة في «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» لمحمد عبد الله عنان ٢ :١١٠ –١٠٥.

(٢) الشّعر في الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدّين بن الخطيب ٢: ٤٧٩ – ٤٨٠

(٣) انقضى: تم، وحصل .

وأنْجَزنا وَعْــدٌ[١] مــن الله صــادِقٌ
كفيــلٌ بإبطــال الظُّنــون الكَــواذبِ
وســاعدَنا التّوفيــق حتــى تبيّنــتْ
مقاصِــدُنا مــشروحةً بالعَواقــبِ[٢]
وأذْعنَ من عُليــا هــلال بــن عــامرٍ
أَبــيٌّ ولَبّــى الأَمْــرَ كُــلّ مُجانِــبِ[٣]
وهبُّوا إذا هَبّ النــسيم كمــا سَــرى
ولم يتركوا بالــشّرق ِعلقــة آيــبِ[٤]
يغص بهم عرض الفلا وهــو واسِــعٌ
وقد زَاحموا الآفاقَ من كــلّ جانــبِ[٥]

---

(١) أنجز وعده: حققه وتمّمه.

(٢) أي ساعدنا توفيق الله تعالى بأن تحققت مطالبنا وأهدافنا، العَواقب (جمع عاقبة) النتائج .

(٣) بنو هلال بن عامر كانوا ممن خالف على الموحدين فقصد الخليفة إلى قفصة. والمجانب: المخالف. يقول أذعن الذين خالفوا جميعاً ونزلوا عند رأي الخليفة وطاعته.

(٤) سرى النسيم: جرى .

(٥) الفلا: جمع الفلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة .

كـــأنّ بـــسيطَ الأرضِ حلقـــةُ خـــاتمٍ

بهم، وخِضَمُّ البحرِ بَعْضُ المـــذايبِ[1]

ومَدّ علـــى حكـــم الـــصَّغارِ لِـــسِلْمِنَا

يَديْهِ عَظيمُ الرُّوم في حالِ راغـــبِ![2]

وقال[3]:

[من بحر المنسرح]

مـــا كُـــلّ مـــنْ شَـــمّ نَـــال رائِحـــةً

للنّـــاسِ فِـــي ذا تَبـــايُنٌ عَجَـــبُ[4]

قـــومٌ لهـــم فكـــرةٌ تجـــول بهـــمْ

بـــين المَعـــاني، أولئـــك النُّجُـــبُ[5]

---

(١) الخاتم المدور.. الخضمّ: البحر الواسع، المذانب (جمع المذنب، المفردة بكسر الميم): مسيل الماء إلى الأرض.

(٢) مدَّ يديه: تقرُّباً وتبعيّةً، والمقصود هنا وليم الطيب ملك صقلية بَعث إلى الخليفة الموحدي يطلب الصلح والمهادنة (دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣ : ١٠٨ – ١٠٩).

(٣) النص في (المعجب للمراكشي): ٣١٤

(٤) تباين: اختلاف .

(٥) النجب: جمع النجيب: الفاضل على مثله، النفيس في نوعه .

وفرقــــة فـــي القـــشور قــد وَقَفــوا

ولـيس يـدرون لُــبَّ مــا طَلَبُــوا[1]

لا غايــــــة تنجلــــي لنــــــاظرهم

منــــه، ولا ينقــــضي لَهُــــمْ أَرِبُ[2]

لا يَتَعــــــدّى امـــــروٌ جِبِلَّتَــــــهُ

قد قُــسمت فـــي الطبيعــةِ الرّتــبُ[3]

وقال[4]:

[من بحر الوافر]

سألتُ مــنَ المليحــــةِ بُــرْءَ دائـــي

بِرَشْــفِ بَرُودِهــا العَــذْبِ المــزاجِ[5]

---

(١) شبه الأمور التافهة بقشور الثمرات التي لا فائدة فيها.

(٢) الأرب: الغرض والمطلب .

(٣) الجِبِلّة : الخِلقة، الرّتبة : المنزلة والمكانة.

(٤) النص في الإحاطة ٢: ٤٨١.

(٥) يقول: سألتُ المليحةَ (الحَسْناء) أن تَشفيني من دائي (وهو شدِّة الشّوق وتأجّج نار الحُبّ) وقال: سألت من المليحة لأنه أراد: طلبت ورشف الماء: مصّه بشفتيه.

البَرود: كل ما برّد به شيء كالشراب يبرد به العطش .

فمـــا زالـــت تقبّـــلُ فـــي جُفـــوني

وتبهرنـــــي بأصـــــناف الحجـــاجِ[1]

وقالـــت إنّ طرفَـــكَ كـــان أصْـــلاً

لـــدائِك، فليقـــدّمْ فـــي العِـــلاجِ[2]

وقال يتغزّل[3] ويكنّى عن (الحبيب):

[من بحر الوافر]

أتَـــذْكُر إذْ مَـــسَحْتَ بفيـــكَ دمْعـــي

وقـد حَـلّ البُكـا فيـه عُقـودَه ؟[4]

---

(١) بهره الأمر: أدهشه. الحِجاج: المحاججة وتقديم الدليل في المناقشة .

(٢) الطّرف: العين.

- ناقشته في المسألة: لما كانت العين (التي رأت فكانت المَدْخل إلى الإعجاب والحب) هي السبب في دائك (الشّوق واللّهفة) فمن المنطقي أن تبدأ بمعالج الأصل في الداء، أول السبب الرئيسي.

- وفي الشعر ملامح المفردات والمدارك الطبيّة !!

(٣) النص في المقتضب : ٧٢ والوافي ٣٧/٤

(٤) في الوافي: بفيك عيني، ويقول كان الدمع ينحدر من عينية كحبات (اللؤلؤ) المتدحرجة من (انفراط) ذلك العقد .. فمسحت تلك الدموع بفمك ..

ذكــــرتُ بـــأنّ رِيقَـــك مــــاءُ وَرْد
فقابَلْــــتُ الحَـــرارة بــــالبُرودَهْ ! [١]

ومن شعره في الزهد[٢]:

[من بحر البسيط]

يا باكياً فُرْقَة الأَحبابِ عــن شَــحَطِ[٣]
هــلاّ بكيــتَ فــراقَ الــرُّوح للبَــدنِ
نورٌ تــردّدَ فـــي طـــينٍ إلـــى أجــلِ[٤]
فانْحَازَ عُلواً وخَلّـــى الطــين للكفــنِ
يا شدّ ما افْتَرقا من بعــد مـــا اعتلقــا
أظنّها هُدْنَـــةً كانـــت علـــى دَخَــنِ[٥]
إن لم يكن في رضى الله اجتماعُهمــا
فيا لَها صَفْقةً تمّــتْ علــى غَــبنِ![٦]

---

(١) جَعل استقبال الحبيبة الدموع الحارة بالثغر البارد مفارقة ومقابلة بين شيئين متضادين. واستخدم مصطلحات الأطباء (الحرارة، والبرودة) .
(٢) النص في المعجب للمراكشي: ٣١٣ – ٣١٤.
(٣) الشحط: البعد.
(٤) أي إلى أجل محدد (العمر الذي ينفد) .
(٥) دَخنَ: حقد. يقال " هــدُنة على دخــن " أي: صلح على فساد باطن
(٦) غَبن، يقال غبنه في البيع : غلبه ونقصه .
- واجتهد مدني صالح في الربط بين هذه القطعة، وبين أبيات من عينية ابن سينا (هبطت إليك..). مع إقراره بالاختلاف .
(ابن طفيل قضايا ومواقف : ١٢٨ – ١٢٩).

قَدّم ابن سعيد الأندلسي للأبيات التي اختارها من القصيدة في كتاب المغرب في حلى المغرب ٢: ٨٥ بقوله: وأشهر شعر ابن طفيل وأحسنه قوله[1]:

[من بحر الطويل]

أَلَمّـتْ وقـد نـامَ المُـشيحُ وهَوّمـا
وأسْرَتْ إلى وادي العقيق من الحِمى[2]
وجرّت على تـرب المُحَـصَّب ذيلهـا
فما زال ذاك التربُ نَهْبـاً مُقَـسّما[3]
تناولـه أيـدي التُّجـار لطيمـةً
ويحملـهُ الـداريُّ أيّـانَ يَمّمـا[4]

---

(١) اختار د .عمر فروخ هذه القصيدة في تاريخ الأدب العربي (٥: ٤٧١) وسوف نفيد من توجيهه وشرحه. وصدّر القصيدة بعبارة: قال ابن طفيل في ا لغزل الصوفي: محبة العزة الإلهية .

(٢) أَلَمّت: زارت، اقتربت . المشيح: المعرض بوجهه، الذي أدار وجهه. هوم: نام نوماً خفيفاً فتمايل رأسه من النعاس. أسرى: سار ليلاً، وادي العقيق، والحمى والمحصّب في البيت بعده أماكن، ولكنها لم ترد لمقاصد جغرافية .

(٣) مرت على الترب وهي تجر ذيلها فتعطر الترب، وتنهابه (تخاطفه) الناس حرصاً عليه .

(٤) التّجار: جمع التاجر. اللّطيمة: وعاء المسك. والدّاري: العطار (وتقال في الملاح).

ولمّـــا رأت أن لا ظــــلام يجنّهـــا

وأنّ ســـراها فيـــه لـــن يُتكتّمـــا[1]

نضَتْ عذباتِ الرّيط عن حر وجههـا

فأبــدت محيّــا يــدهش المُتَوسّــم[2]

فكـــان تجلّيهـــا حجـــابَ جمالهـــا

كشمس الضحى يعشى بها الطّرف كلّما[3]

ولمّــا التقينــا بعــد طــولِ تهــاجرٍ

وقد كاد حبلُ الوصــل أن يتــصرّما[4]

جَلت عن ثناياهــا وأومــضَ بــارقٌ

فلم أدْرِ مَنْ شــقّ الدّجُنّــةَ منهمــا[5]

---

(١) يجنها: يسترها .

(٢) نضا: رفع وكشف. العذبة: طرف يتدلى من العمامة إلى جانب الرأس. الريط: الحرير. المتوسّم: الناظر، المتأمل.

(٣) التجلي: الظهور. حجاب: غطاء، الطرف: البصر، ويعشى: يضعف (نظره) لأن النّور قويّ جداً، وكلما: أي كلما نظر.

(٤) يتصرّما: ينقطع .

(٥) جَلتْ: كشفت. المراد بالثنايا الأسنان التي تبدو. أومَض: لمعَ، الدجنّة: الظلام .

وساعدني جفنُ الغَمــام ِعلــى البكــا

فلم أدر دمعــاً أيُّــا كــان أسْـجما[1]

فقالــت قــد رقّ الحــديثُ وأَبــصرتْ

قــرائنَ أحــوالِ أذعْــنَ المكتّمــا[2]

نشدتك لا يذهبْ بــك الــشوق مــذهباً

يهوّن صــعباً أو يــرخّص مأثمــا[3]

فأمــسكتُ لا مــستغنياً عــن نوالهــا

ولكنْ رأيتُ الصَّبْرَ أوفى وأكرمــا![4]

وقال والمقصد غزليّ [5]:

---

(١) الغمام: السحاب (جعل له جفنا على الاستعارة). أسجما: يريد أكثر انسجاماً: انسكاباً.

(٢) قرائن: دلائل، أحوال، أذْعَنَ: كشفن، أظهرن. المكتّم: (السر المكتوم، الحب) .

(٣) نشدتك: سألتك راجيا . المأثم: الذنب .

قال د. فروخ في شرح البيت: استحلفتك لا تدع شوقك يهّون لك أمراً صعباً (يوهمك أنكم تستطيع الاتصال بالعزة الإلهية أو يرخص: يجيزه خلافاً للقاعدة (لا تعتقد أن الحب في شأن الله كالحبّ في شأن البشر).

(٤) النوال: العطاء (الوصال: نيل المأرب من المحبوب) .

(٥) الأبيات في المقتضب: ٧٢.

يقولون لي: ظمياء أضــحتْ عليلــةً

فقلتُ فما بــالي بقيــتُ إذن حيّــا؟[1]

أتُصبْحُ شمس الأرض ِكاســفَة الــسّنا

ولا يَعْتَــرى جِــسْمِي لِعلّتهــا فَيّــا[2]

إذا ما طوى عني الــسَّقامُ وصــالَها

طوى الموت روحي في مُلاءَتِه طَيّا[3]

* * *

---

(١) ظمياء: اسم رمزي من الأسماء المتداولة (حتى لا يذكر الاسم الأصلي).

(٢) السنا: الضياء ، اعتراه الداء: ألمّ به وأَصابه، الفيّ أصلها: الفيء (الظلّ).

(٣) السقام: المرض والعلّة .


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفهرس

الصفحة

أ. د. محمد رضوان الدّايـة

- عمل أستاذاً في جامعة دمشق، وعدد من الجامعات العربية.
- عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.
- حاصل على جائزة التّقدّم العلمي في الفُنون والآداب من مُؤسسة الكويت للتقدّم العلمي (٢٠٠٨).
- له نحو (٧٠) سبعين كتاباً بين تأليف، وتحقيق للنصوص التراثية، وتصنيف، ومجموعات قصصية للأطفال.
- له برامج إذاعية ومتلفزة في عدد من الإذاعات ومحطات التلفزة في القطر والبلاد العربية.


الهيئة العامة
السورية للكتاب



الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة



هذا الكتاب دراسة موجزة ومكثفة عن أحد رجال الفكر والعلم والأدب في تاريخ التراث العربي: يلقي الضوء على بيئته وأبرز معالم حياته، ويعرض لأهم وجوه إبداعاته ومنجزاته، وهو أبو بكر بن طفيل الأندلسي الذي اقترن اسمه في الأندلس والمغرب العربي وفي بلاد المشرق العربي والإسلامي باسم رواية فلسفيةٍ بديعةٍ عنوانها: (حي بن يقظان).

ولم يتوقف تقدير هذا المبدع على الزمان الذي عاش فيه بل تجاوزه متوصلاً إلى العصر الحديث.





www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها